
الحب
و
الأذى
كرم صابر
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل

الحبُّ وَالأذَى
كرم صابر

مجموعة قصصية : الحب والأذى

المؤلّف : كرم صابر

الطَّبعة الأُولى : ٢٠١٠

تصميم الغلاف والإخراج الداخلى : صالح عبد العظيم

الناشر : مؤسسة [١٥/٣] للنشر والإعلان

العنوان : مدينة الفسطاط ، المجاورة الأولى ، عمارة ٦٣ ، شقة ١٣

تليفون : ٠١١٥٨٥١٢٩١(٢+) - البريد الإلكترونى : info@15-3.net

الموقع الإلكترونى : www.15-3.net

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢٠٦٦ - الترقيم الدولى : ٦-٠٦-٦٣٣٥-٩٧٧-٩٧٨

تدمك : ٠٩٧٨٩٧٧٦٣٣٥٠٦٦

١- القصص العربية القصيرة

أ – العنوان - ديوى ٨١٣,٠١

الطبعة الثانية ، ٢٠١١



دار اكتب للنشر والتوزيع

١٠ شارع عبد الهادى الطحان ، المرج الغربية

موبايل :٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام : يحيى هاشم

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

إلى أصدقائى

رِفاق الطّريق الذين تاهُوا فى السُّوق الحُرَّة

البُهْجة

تملأ أَبْلة "جمالات"، وأختها "نوسة" الحارة حين تسيران بدفءٍ ممزوجٍ بالإثارة، وتتركان في نفوس الجيران بمجرّد مرورهم فرحًا يدوم لساعاتٍ طويلة.

أبلة "جمالات" وأختها وأبناؤهما كالغجر لا يخافون شيئًا ويفعلون كلّ ما يرغبون فيه، ولا توجد عندهم أية اعتباراتٍ لتقاليدنا، ويشفقون علينا لتكبيل أنفسنا بكلِّ هذه القيود.

حين كبرت ابنتها "سارة"، وأخذت الدبلوم جاءها العريس، وعرفنا أنّه صاحب ابنها "ناصر" سائق الميكروباص، كان يحُشّش معه في المنزل، وسارة تُخدِّم عليهما، فطلبها من "ناصر"، ولم يتأخر لأنّ أبلة "جمالات" سألتها أمامه :" عامر عاوز يجوّزك يابت"، فقالت سارة: "أنا بحبه يا مّه!!"

حدّدوا موعد الفرح، وطلبت أبلة "جمالات" من العريس أن يُجهِّز لـ "سارة" شقة كاملة من مجاميعه ، فكلّ الأثاث والملابس والأجهزة عليه.

لم يتأخّر "عامر"، وخلال ثلاثة أشهر أعلنت الزّاقصات بالشارع دخول "سارة" عُش الزوجية، ويحكي النساء كلّ يوم عن العز والسعادة التي تعيشهما مع "عامر".

تمشى أبلة "جمالات" في فخرٍ مع "نوسة" أختها تُعلن لجيرانها الذين كبّلتهم القيود عن طعم الشعور الغجري بالبهجة، والذي لن ينساه الأهل رغم ضيق المعايش.

كُنتَ وقتها أجلس على المقهى الملاصق لمنزلهما، وأنظر إليهما فى دهشة، أشتمّ منهما رائحة القوة التي تملأ الحارة، هؤلاء الغجر الذين يُنفِّذون وقتما يشاؤون رغباتهم واحتياجاتهم دون خوفٍ أو عواقب.

مرّت أعوام كثيرة حين جاءت لمكتبي، وطلبت منّي الترافع فى قضية ابنتها "سارة" التي رفعها عليها "عامر" طالباً طاعتها، قالت: "إيه اللّي حصلّك يا سيد، إنت عجّزت كده ليه يا واد، هاتلك بت حلوة قعّدها في الصالة، علشان تخفّف عن نفسك مشاكل الناس"، ولمحت بأنّ "سارة" لا تعمل ومعها الدبلوم، وتستطيع أن تكتب على الآلة الكاتبة.

وحين ودّعتها أمام السكرتارية وبعض الزبائن فى الصالة، قالت: "يا واد يا سيد هاعتمد على الله وعليك في القضية، سارة مش هترجع تاني ليه، وهتاخذ كلّ حاجة منّه الشقة والعفش، إحنا مش عايزين عياله؛ لأنّ بنتى حرّة زى أمها!"

وضحكت بهستيريا، وقالت بعد إطلاق روحها الممزوجة بالفُجر فى الصالة : "ابقي عدّي علينا النهاردة يا سيد، سارة قالت يامّه لازم أحكي له بنفسي كلّ حاجة، ولاّ نجيب محامي غيرك يا واد؟!"

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة حين دخلتُ منزلهم، وكعهدي بهم، الأنوار تملأ كلّ الأركان، المخدات مرصوصة على السّجادة الوحيدة بالحجرة، فحم الشيشة أمام "ناصر" يشتعل دون دخان؛ ليُدلّل على جودته.

احتضنني "ناصر" وقال: "إيه يا متر بتِتكبّر علينا ولاّ إيه؟" صرخ: "يا جمالات الأستاذ سيد هنا"، ردّت من الحمام، وقالت: "أستاذ عندك إنت

ياروح أمك، ولاّ هو نسي زمان، لما كنت بلعب له في بلبله"، قال "ناصر" لأمه: "يا وليه عيب"، ثم نظر إليَّ وقال: "استِلم يا عم"، وأعطاني الشيشة، وقال: "أنا عارف إنك بتشرب... حجرين على الماشى، علشان دماغك تفك، وتستحمل عنجهة أمى".

دخلت "سارة" ذات الأربعين مملوءَة أنوثة لم يؤثّر في جمالها هذا العمر، مازالت نظرات عينيها تُرعبني ، قالت بتحدٍّ: "يا عمّ سيد بقيت محامي خلاص، ومش هنعرف نشوفك ولاّ إيه؟!" تجاهلت سؤالها قائلاً: "أبلة نوسة فين؟"، ضحكت في ميوعة، وقالت: "يا عمّ يا مسطول نوسة بألها عشرين سنة في إسكندرية مع عيالها!"

ظهرت أبلة "جمالات"، وأصرّت على إطعامى، وقالت: "إنت جاي علينا من المكتب، لازم تأكل معانا، دا إحنا عاملين محشي من إيد أبلتك جمالات يا واد"، قالت لـ "سارة": "هاتِ يابت الأكل "، ثم نظرت إليَّ، وقالت: "هى الشرموطة اللّي في بيتك بتعرف تُطبخ!"

تعرف أبلة "جمالات" أنّ زوجتي التي تعمل بوزارة الصحة ليس عندها وقت، فحين قابلتني بعد سنتين من زواجي قالت: "إيه اللّي عملته في نفسك ده ياوله، ومين هيطبطب عليك، ويدعكلك ضهرك آخر الليل؟"، قلت: "النصيب يا أبلة"، شخرت وسبّت الدين، وقالت لي: "طلقّها وعش حياتك"، لكنّي هربت من عيونها الفاجرة، مُطأطيء الرأس، بعد أن ودّعتني بشفقة.

انتهى "ناصر" من رصّ طاولة الحشيش ، ولملمت "سارة" بقايا الأكل، وهي تنحني في دلالٍ لتُظهر نصف نهديها الممتلئين، ثمّ تتمايل على حافّة الباب، لتظهر قميصها الأحمر تحت جلابيتها الضيّقة.

مرة أخرى تُعيدني أبلة "جمالات" وابناها إلى رحيق الحياة الذي فقدته، كانا يغردان حولي، وأنا أتساءل في ذهولٍ، كيف استطعت سماع كلّ هذه الشكاوى ، والاستغاثات والآهات لسكّان الحارة ، وأعود مرّة أخرى، لأستمتع بيومٍ كنتُ قد اعتقدت أنّه لن يعود أبدًا؟!

بدأ الحشيش يلعب في رأسي، واستأذن "ناصر" ليلحق ورديتة، وقال بفخرٍ: "إنت قاعد في بيتك، خد راحتك علي الآخر، على فكرة يا جمالات أنا هرجع بعد بكرة"، وقال لـ "سارة" وهو خارج: "الأستاذ سيد أخويا طلباته أوامر"، شخرت "جمالات" لابنها، وقالت: "وحياة أمك لبيات عندنا النهاردة روح شوف شغلك".

صرخت الديوك من اعلى أسقف المنازل، لتعلن قرب أذان الفجر، فقامت "جمالات" معتذرة، وقالت:"سارة معاك تحكي لك براحتها عن بلوتها اللّى ربّنا رزقها بيها، الوسخ جوزها بيضربها، وما بيصرفش عليها، عرفنا أنه مرافق بت من الجزّارين بيحوّل عليها إيراد العربية".

تركتني مع ابنتها التي تلمع كالفجر، لتحكي بنشوة مشاهد الشجار بينها وبين زوجها، وكيف أنّه في الشهور الأخيرة لم يلمسها، صمتت فترة وقالت: " كنت بقوله إزاي تسيبني كده يا عامر؟ ده مش شرع ربنا"، ثمّ تقترب لتفوح رائحتها العطرة، وتقول: "يرضيك يا سيد!" كنت على وشك الانهيار حين رفعت قميص النوم، ليظهر وركها الناعم ولون

ملابسها الداخلية، واستكملت: "آخر مرة عضّني في وركي، شوف يا سيد جاب دم، شوف الزَّرقان ياخويا شوف"، اقتربت حتّى التصقت بي، أمسكت يدي؛ لأخفَّف عنها آثار العضة، وحين لامستها تكهرب الدم المتبقّي في عروقى، شاهدَتْ ذلك في عيني، فقالت: "مالك يا سيد، ما تخافش يا خويا، إنت بترتعش كده ليه"، أخذتنى فى حضنها لتُخفّف عني، انفجرتُ في صدرها الذي تعرّى، سبحت في بحرها الدّافئ عشر ساعات متواصلة، كانت تمصّنى، ثم تملؤنى وتُفجّرنى، كان حضنها المملوء حنانًا يُهجنى، ويجعلني أجرى معها فى حقول الورد المحيطة بالنيل ، لم ينقذني من الغرق فى هذه الليلة إلاّ صوت أبلة "جمالات" من الحجرة الملاصقة: "يا واد يا سيد كفاية كدة، اصحى علشان تروح المكتب... اللَّيل دخل يا واد اصحى يا وسخ!"

ريق الحياة

تلبس أمه الشال المطرّز بالترتر والجلابية التيل المفتوحة، لتظهر ملامح جسدها طازجةً، ويظهر نصف نهديها متفجّرًا من فتحة الجلباب، والنصف الآخر مغطًّى بالسّنتيان الأسود المعلّق على مشدّتها المرفوعة على أكتافها، وكلوتها المزركش بالألوان يُزغرد في ازدهارٍ ، وهي تتحرّك داخل الشقّة... تلامس أردافها من غير قصدٍ ركبتي وهي تنتقل من غرفة النوم إلى المطبخ، وأنا جالس مع ابنها "على" نذاكر دروسنا، كنت أتعجّب من رحيق الشقّة البسيطة التي تنضج بالحياة والحبّ الذى يطير؛ ليملأ الحارة بهجة، تعلن "رجاء" أخت صديقى للحارة عند طلعتها عن النّور الذى يمحو الظلام، يسافر أبوهم دائمًا إلى ليبيا، ويأتي كلّ عامٍ لمدة شهرٍ مُحمّلاً بالملابس الملونة؛ ليملأ البيت عليهم سعادة، ويتركهم ودموع الفرح والحزن تختلط بينهم الأربعة.

تمشى "رجاء" ذات الثمانية عشر ربيعًا في الحارة تتمخطر بملابسها الضّيقة، وتِرتر قميصها الداخلي الكُحلى يتدلّى من تحت جلبيتها التي تفوح منها رائحة العنبر، كانت رائحتها تُظلّل الحارة فيصمت الناس على النواصي، ويتركونها تمرّ محاولين جميعًا أن يشمّوا أكبر قدرٍ من ريق الحياه الذي يشعّ من عينيها، لتعينهم على تحمّل الصبر.

تعرف حارتنا أنّ شقة "علي ليبيا" صديقي هي شقّة الفرح والبهجة، فأمّه بصوتها المبحوح، وعينيها الواسعتين، وصدرها البارز، وشعرها المحلول تُعاند رجال الحارة ونساءها بكلّ البهجة المسروقة؛ لِتُعينهم على تحدّى الحزن والقهر.

كنت الوحيد الذي اكتسب ثقتهم من بين الصّبية، يحسدوننى؛ لأنني الوحيد الذي استطاع العيش معهم ومعرفة تفاصيل حياتهم، ورآهم ينامون بالملابس الدّاخلية، ويتقلّبون فى أسرَّتهم ذات المِلايات الناعمة، وشاهد فرحتهم كلّ صبحٍ وهم مملوؤن بهجة، ووجوهم جاهزة دائمًا للانطلاق بالكلمات الرقيقة الطيبة.

منذ سنتين وأنا أسير بجوار سور المستشفى القديم، عائدًا من عملى وجدت "علي ليبيا" بعد أن هجر البيت، وتطوع بالجيش، وهو يمشى مع ابنه "محمود"، حين رآني بكى وأخذني في حضنه، لم نتحدّث كثيرًا، لكننا بكينا على العمر الذي جرى دون أن ندري، لم أفهم الكثير من حديثه، لكنّه ذكر لي أنّه تزوج ثلاث مرات ولم يُوفّق، وفي كل مرة كان يُرزق بالأبناء، لكنّ النساء تغيّرت وأصبحت كئيبة، قال إنّه مازال يبحث عن امرأةٍ فيها حياة أمّه، وبهجة "رجاء" التي ماتت، بعد حرقها بأُنبوبة البوتاجاز.

رائحة "أمنية" التي لا تُنسى

"بهجة القلب أين اختفت؟! هل سُرقت؟! تاهت؟! كيف يمكن إعادتها سليمة كاملة؟" سألني صديقي "طاهر" كلّ هذه الأسئلة حين قابلني منذ يومين بجوار محلّ الموبايلات الذى يملكه بجوار محطّة الأتوبيس، ذكّرني بالأيام التي كنّا نسرق فيها الفيديو من منزلهم، ونستأجر شرايط الأفلام والمسرحيات، ونسهر طوال الليل في بيت صديقنا "مجدي" الذى مات أبوه فى سوق الخضار.

كان والد "طاهر" الذي يُسافر لدول الخليج لا يعود إلا كلّ سنتين بالسيارة التي كُتب على لوحتها "جُمرك جدّة".

كنّا نسأله: "يا عمّ ربيع أين هي جدّة؟ وهل هذه البلاد التي تذهب إليها يسكن بها بشرٌ مثلنا؟! هل نساؤهم تمشي في الشارع آخر النهار بعد أن يستحممن، وينظفن منزلهن، ويتزينَّ بأجمل الثياب، وعطر رائحتهنَّ الطيب يفوح من بين أفخاذهن؟! ... ياعمّ ربيع هل هناك قهاوى وعربيات للفول، ومقالى للبّ وبائعين للحمّص، والترمس والبطاطا؟! هل هناك نيل وبحر مثل الذى يجرى عندنا؟!"

يصمت "ربيع"، ويقوم ليُحضر لنا طبقًا من الفستق والبلح والسّوداني، ويقول: "بكرة تكبروا، وتعرفوا كلّ حاجة".

تجلس "أمنية" ابنته التي تلبس البنطلون الجينز الذى لم نكن نعرفه، على حجره وهي سعيدة بعودة والدها، على الرّغم من أنّها تجاوزت الخمسة عشر، فإنها كانت مثل الطفلة الصغيرة حين تراه، وتساءلت وقتها: "لماذا لا يعامل أبي أُختى ثناء بهذه الرقّة؟!"

كان أبي حين يرى "ثناء" يتجهّم وجهه، فتختفي من أمامه وكأنّها كائنٌ غير مرغوبٍ في وجوده، فتختفي سريعًا بالحمّام!

لماذا أزعجتنى والدة "طاهر" التي لا تلبس إلا قمصان النوم والأرواب الشفافة؟! أنظر من الشبّاك وهي جالسة معنا فتُظهر ملامح جسمها الأبيض في فخر، فأجد "عيوشة" زوجة "علي الحدّاد"، والتي تسكن أمامهم وهي تحمل كيس الكآبة فوق وجهها، بعد أن حرّم عليها زوجها ظهورها فى الشارع، أتساءل: "كيف يمنع الحدّاد الذي يتعرّى طوال النهار فى ورشته زوجته من الظهور في الشارع، ويُجبرها على تغطية وجهها وشعرها، رغم أنّه يعيش معها في نفس المنزل ؟!"

يترك "ربيع" لزوجته الحبل على الغارب، فلا تلبس إلا قمصان النوم الملوّنة وتظهر بالشارع فى دلالٍ ودون خوفٍ من ظهور أردافها ونهديها، وملابسها الداخلية وشعرها الأصفر، علي الرغم من أنه كان يسافر دائمًا، ولا يأتي إلا كلّ عامين لمدة شهر؟!!

هل هذه الملابس العارية إشارة طُهرٍ أم دليل دنس؟!

تذهب أم "طاهر" للمدرسة، وتتفق مع المدرسين، لكى يعطوا الدروس لأبنائها فيحضروا لمنزلها، وينفردوا بها على الرّغم من سفر زوجها.

منزلهم نظيفًا ولا توجد به حشرات، ووجه أخته "أمنية" يلمع، وشعرها الكستنائي الهائج المحلول يُرعبني، وهي تدخل علينا الحجرة تسأل "طاهر" عن قلمها الرصاص المرسوم عليه كعبة "الرسول"، تمتلئ الحجرة حين تدخل برحيق الحياة الذى لم أنسه، تنسحب روحي منّي وهي تقترب من الترابيزة التي نضع عليها الكتب، اليوم أعتقد أنّ دمي الملوّث بفيرس بى وسي لم يستطع أن يقاوم التلوث إلاّ بسبب رائحة وهلّة "أمنية" فى هذه اللّيالى، والتى كانت يداها اللتان تشبكّهما في يديّ في غفلةٍ من أمّها تُطهِّر الدم الباقي بجسمي من الدنس!

حين رآنى "طاهر" صباح اليوم صرخ: "أنت الوحيد الشاهد على العز الذي كنا نتمرغ فيه، أنت الوحيد الذي شاهد أختي أمنية كأميرة وأمي كملكة"، قلت له: "عامل إيه، أخبارك إيه؟"

قال فى حسرةٍ : "المنزل أُزيل بعد أن أكلته الرّطوبة، وأبي مات بالسفر ودُفن بأرض الرسول، وأمي أُصيبت بالشّلل، وسافرت أمنية أختي لبلاد العرب بعد أن تزوجت أميرًا، وأنا أخذت قرضًا من البنك، وفتحت محلاً لبيع وتصليح الموبايلات، لولا مساعدة أهل زوجتي لكنت دخلت السّجن بسبب الديون التي تراكمت عليّ"، لكنّه أصرّ على أن أشرب الشاي، وحلف ميت يمين كى أتغدّى، وطلب من القهوجي أحلى شاي وسألني عن حالي، لم يعطنى الفرصة لأجيبه، واستطرد في الحديث يحكى عن أبنائه

الذين أقعدهم اليوم من المدرسة بسبب أنفلونزا الخنازير، لكنّه لا يعرف كيف سيذاكرون دروسهم؛ لأنّهم يتفرجون طوال اليوم على التليفزيون وأهملوا تعليمهم، المصيبة أنّ زوجته تقول دائما: "هنعمل إيه بالتعليم؟! المهم صحة العيال يا طاهر!!"

كنت أحاول أن أعتذر ليتركني حتّى لا أتاخر عن موعد المكتب، وحين اشتبك مع جاره "جلال" بن "علي" الحدّاد صاحب الورشة في خلافٍ حول نتيجة ماتش الكورة، وأفضلية اللاعبين ومن أحقُّ بالفوز ... نظرت إليهم، وقلت: "لازم أمشي".

استكملت بصوت خفيض وأنا أودّعه: "أختك أمنية عاملة إيه؟"

الزمن الفاجر

في الأيام الأخيرة التي يظهر فيها بالحارة كان يترنّح أثناء سيره، لم يلمح الجالسون على المقاهي وعلى النواصي التغيُّرات التي طرأت على ملامحه، لكنّ صديقه الذي لا يراه إلا كلّ شهرٍ بالصدفة أثناء مروره من أمام شقّته بالدور الأرضي قال: "إيه اللّي حصلك، شكلك اتغير يا أبو محمود؟"

حاول "أبو محمود" أن يحكي عن الأسباب، لكنَّ عينه أبقت دموعها، حافظت عليها داخل جفونه حتّى لا يقلق صديقه، وقال: "يا أخي مفيش حاجة".

يعلم أنّ ابنه الكبير يشرب الحشيش مع أصدقائه الذين تخرّجوا من المعاهد والكليات والمدارس؛ لكنّهم لم يجدوا أحدًا يُساعدهم على الالتحاق بالوظائف الحكومية.

تذكّر "محروس" فجأة والده حين رآه، وهو يدخّن لأول مرة وكادت روحه تُفقد داخل أمعائه، لكنّ أباه ربت على كتفه ، وقال: "والله وكبرت يا محروس!" ونظر إليه بفخرٍ بعد أن تركه.

كان "محروس" وقتها مفتول العضلات، قوي البنية لا يخاف برد الشّتاء، وجسمه مملوءًا حرارة، ودماؤه تغلي بداخله، ففي شهر "طوبة" يعمل بوردية اللّيل بمقهى بشارع النيل، رغم شدة البرد فإنه ينام على الطاولة دون غطاء، يحسّ بالبرد يلسعه بقدمه، لكنّه لم يهتم.

الآن ترقد زوجته مريضة بالمنزل تُعاني السكر والضغط والفشل الكلوي، وعندما يلمسها إذا آتاه هاتف بأنه رجل تَتَأَفّفُ، وتتوجّع وتقول: "هوّ أنا فيّ حيل ... يا راجل اتهدّ"، يفاجئهما الأولاد بشخيرهم بالحجرة

المجاورة للصالة، فيتنبّه لوجودهم، ويفقد "محروس" رغبته فى معاشرتها، وينام!

اليوم يتذكّر "محروس" أيام صباه، يتحسّر على الصحة التي ضاعت دون أن يفعل شيئًا لنفسه، أو لزوجته، أو أبنائه، فهو يعيش بنفس الشقّة التي تزوّج فيها، ومازال يعمل بمقهى "ناصح" الصّعيدي التي تربّي فيها.

حين رأيته فى الصّباح، وهو يترنح أثناء سيره كنت الوحيد على المقهى الذي اكتشفت عدم توازنه .

سألته: "إيه ياعمّ محروس إنت شارب حاجة؟!" نظر إليّ بسخرية بعد أن توقّف، ثم استكمل سيره دون أن يردّ عليّ، بعدها شاهدت "ثناء" ابنته الوحيدة على ثلاثة ذكور تخرج من باب بيتهم القديم، ملتفّة بإسدالها الأسود، وتهزّ أردافها، ونهايات أقدامها تتعرّى كل خطوة، سال لعابي في بادئ الأمر على هذه النشوة الأُنثوية التي ملأتنى بمجرّد النظر في عينيها.

فقمت وسرت وراءها حتّى شارع "عبد المنعم رياض"، وناديتُ عليها، وعندما لمحتنى أسير وراءها، ابتهجت ودعتنى بعيونها كى أستكمل سَيرى وراءها.

اقتربت منها وقلت:" ثناء عايزة حاجة؟" ردّت بدلالٍ ونصف نظرة: "عايزه دكر!!"

اقتربت أكثر بعد أن دعتنى رائحتها حتّى التصقت بنهديها، وقلت: "طيب ماتيجي نروح شقّة أمي، ونشوف" .

ردّت بكل الدلال: "وهتعمل إيه في أمك يا معدّل؟"

قلت بكل حزمٍ: "هيّ مش موجودة النهاردة، هتبات عند أختي في فيصل".

كانت أمي تغيب أسبوعًا كلّ شهرٍ عن البيت الذي لم يتبقَّ فيه أحدٌ بعد وفاة والدي، وزواج "جيهان" أختي من ثريٍ عربي يزورها عدة مرات في العام، بعد شرائه شقة بشارع فيصل لها، ويرسل لها ألف جنيه كل أول شهر لتأكل، وتنتظر ذهبه وسهراته كلّ زيارة .

قالت ثناء: "اسبقني أنا مش هتأخّر، هشتري من عند نزيه كريم لشعري وهلحقك".

عند عودتي شاهدت "محروس" والدها يترنّح، ويكح أمام المقهي وكأنّ روحه تخرج منه، سألني: "ما شفتش ثناء؟" لم أرد عليه أو أهتم، انحنيت في الشارع الجانبي حتّى لا يشاهدني متجاوزًا كل العيون بخفةٍ، وفتحت باب الشقة التي تقع بالدور الثالث، وأغلقت نوافذها، وأحضرت كوبين من الشاى، ولففت عدّة سجائر بانجو.

سمعت طرقات الباب الهادئة ، ففتحت لتدخل "ثناء".

قالت: "أمك فين يا معدل؟"... أغلقت الباب وقلت: "عند أختي يابت".

قالت بصوتٍ "واطي" حتى لا يسمع أحد ... "استنّى شوية"، لكن يدي سبقتني لتحلّ من على رأسها الخمار، وترفع الإسدال الطويل عن جسمها الملتهب؛ لِتتعرّى كالمولودة الطازجة.

كانت جاهزة، فحين تخلع الإسدال يمتلئ قميص نومها الأبيض بالنهّود والأرداف، ويدعوك للموت من أجلها.

قالت: "نشرب سيجارة"، قلت: "أنا لا أتحمّل، تعالي جوّه وبعدين نشرب"، قالت في تحدٍّ: "عايزاك تنّفذ الأول طلبي"، قلت: "اطلبي"، قالت: "فيه برفان حلو كنت نفسي أشتريه النهاردة، ونزيه قالي ثمنه مائة جنيه، وأنا مفلسة"، أخرجت محفظتى ووضعت ورقه بمائة جنيه في حقيبتها، وقلت لها: "ابقي اشتريه بعدين يا روح أمك"، قالت: "هخش الحمام الأول" كانت لحظات طويلة وأنا أُحدّثها من الصالة ..."بتعملى إيه يا بت، حرام عليكِ اطلعى، هدخل عليكِ ، خرجت كالملكة من الحمّام، بعد أن اغتسلت سألتنى: "شفت أبويا النهاردة"، استغربت سؤالها وقلت لها : "هشوفه فين؟"

استطردت: "منذ شهرين يراقبنى، ويقول: يابت خايف عليكِ، رغم أنه يحبني لكن نظراته ترعبنى، يهدّدني بالقتل إذا ارتكبت الرذيلة، إنت عارف إنه بيشتغل يوم ويقعد عشرة" ... تجاهلت حكايتها ورفعتها من الصالة، ألقيتها علي سرير الحجرة، فظهر فرجها كندّاهة، وخَلعتْ كلوتها ورمته على أرضية الحجرة، تخلصتُ من ملابسي في ثوانٍ، أصبحت عاريًا، بركت عليها، وقبل أن أُطفئ ناري، انطلقت دقاتٌ متسارعة على الباب، تجاهلتها في البداية علي الرّغم من تكرارها، لم نهتم لغرقنا فى النشوة، تعالت الصّيحات والدقات، انكسر باب الشقة ليدخل "محروس" والد "ثناء"، وأهل المنزل يحيطون به ليجدونا عاريين، تداخلت الأصوات... "لِم نفسك يا واد... يابت اتغطي... "لكن "محروس" لم ينتظر، فلت منهم عنوة، ودخل بسكينته المرتعشة فى أحشائها التي توسّلت معتذرة ليغفر لها.

كان يصرخ باكيًا ... "يا فاجرة لازم أشرب من دمك ... يا فاجرة لازم أخلّص عليكِ ..." الجميع وقف مذهول للحظة، وهو يري بتشفٍّ عقابه الطبيعي لابنته الوحيدة!

القوّة والرحمة

يملك الناس في بلدتي الصغيرة شيئًا لا يُقدّر بمالٍ اسمه "الرِّضا"، أحسّ ذلك بتعاملات جيراني بالشارع والمقهى، فبهجتهم تلمع ببصيرتي، أسمعها من "حسن" جاري المصاب بجلطةٍ أفقدته نصف جسمه، فعندما يأتي لمدخل المنزل، وينادي على ابنته: "يا منال... يا بت عايزين حاجة... يا عيال هتاكلوا إيه النهاردة... يصرخ ليسمع كل سكان البيت أنّه العاجز عن الحركة يقوم بأداء وظيفته كرجلٍ مسؤولٍ عن بيته ، فرغم الجلطة التي أفقدته نصفه الأيسر، ودخله من عمله بالحِدادة لكنه مازال يصرخ يوميًا... يابت أجيب لكم فاكهة، ولاّ لبن، ولاّ زبادي، ولاّ جبنة؟... عاوزين إيه؟"

أسمع تلك القوة فى رد "أمّ منال" من الدور الثالث: "هات أي حاجة يا راجل"، لتعلن للسكان جميعًا أنّها زهقت منه ومن كذبه، فهل يكذب عمّي "حسن" حين يصرخ ليثبت وجوده؟! هل تقول "أم منال" الحقيقة حين ترد: "هات أي حاجة بس"، بعد هذا الفاصل يطلع عمي حسن لشقته، وهو يشتم "منال" و"أم منال"، واليوم الأسود الذي رزقه بهما!

في هذا اليوم أحسست بموت بطيء يزحف عليّ، أقاومه بتذكّر الأحلام الفائتة التى لم تتحقّق، أُداعب ذاكرتى بزوجات الرجال الذين أعرفهم، والنّساء اللائي رأيتهنَّ لمرةٍ واحدة في الشارع.

تتسسرب الاحداث وسكان البيت يصرخون حولي وتتراي لي المحكمة والمكتب والبيوت الكثيرة التى دخلتها، أتذكّر أصدقائي الذين تركوني للأبد، ولن أراهم حتّى بالصدفة لأنّ الموت خطفهم، والأصدقاء

الذين هربوا من جحودي، والسفلة الذين لم يصدّقوا أنَّ هناك شخصًا مثلى يملك كلّ هذه الوقاحة بعد أن غدرت بهم، لكنها الحياة الملعونة لم ترحمنى من العقاب، وتركتني وحيدًا أُقاوم الموت البطيء.

أقول لنفسى بحسرة: "كلّه يهون علشان العيال".. لكنّنى أردّ على نفسى: "لماذا هجروك، وحرمت نفسك متع الحياة، ودفنت نفسك في هذا الوكر، واصبحت لا تملك إلا ذاكرتك؟! يردّ المارد المتخفّي بداخلى: "ذاكرتك يرقد فيها الفقراء المحرومون من الحب"، ويصرخ داخلى معترضًا: "لكنَّ المحرومين يرتكبون الجرائم"، فتصرخ الضحية لتؤكّد أنّ ذاكرتى يرقد فيها جدّي وستي وأبي وأمي وجيراننا وشوارعنا ، وطفولتنا ونجاحنا ، وكذبنا وصدقنا ، ونذالتنا.

يعلو الصّراخ داخلى مرةً أخرى، فأتوقّف عن مداعبة ذاكرتي؛ لأنّ "حمدى" جارى يصرخ ويستغيث بكلّ الشهداء والقديسين ؛ كى يُشهدهم على غدر زوجته، ويسألها بصوته الجهورى: "لماذا فّضلتِه عليّ؟ الشارع كلّه يعرف أنكِ تتركين العيال وتذهبين لشقته لتنامي معه"، تصرخ "كوثر"، وتقول: "اسكت... لم يحدث شيء... أنت تتخيّل كلّ ذلك"... لكنّ صراخها المتزايد يدل على أنه يبرك الآن فوقها داخل الشقة، ويجرّها من شعرها؛ كى يسقيها من ماء الحمام، دخلت ابنتاه الصغيرتان "هيام ونور"، اللتان لم يتجاوز عمرهما العاشرة عليّ وقالا: "والنبّي يا عمّو حوش عن ماما، ادخل يا عمّو والنبي"، سحبتهما ودخلت شقة حمدي الملاصقة للمكتب، وبمجرد دخولي هربت "كوثر" من بين أفخاذي إلى شقّتي بأولادها، فحضنته وأجلسته على الكنبة، وقلت: "إنت مجنون، كلّنا بنتخيل أن نسوانا بيخونونا، لكن علشان البيت المفتوح والعيال

بنستحمل، اعقل يا حمدى إنت اتجننت، مراتك أشرف واحدة في الحتة، إحنا هنشوف شغلنا ونربّى العيال، ولاّ هنقعد للي قال واللّى قالت؟! اعقل يا راجل، يلاّ نطلع برة على القهوة شوية، يا راجل اعقل"، لم يردّ "حمدى" ولم ينطق، لكنّه قال كلمةً واحدة وهو خارج من الشقة التي لن يعود لها أبدًا: " في خرارة ،تشبع بيه!"

اعتراف

أشرقت الشمس مبتهجةً وأنا أمارس بشراهة معها الجنس، كنت كالحصان حين تشير، فأمتطيها مرّةً ومرّتين، وعشرين مرّة إن طلبت.

سألتني: "لماذا نحن شرهون؟! هل سنترك بعضنا؟" لم أردّ عليها ، لكنّني أومأت: "نعم".

توسطت الشمس النهّار، كان يرغب فى الذهاب لعمله، أربعة أيام قضياها معًا... ولم يصلا إلى شيءٍ، قال لصديقه بعد أن مرّ عام على فراقها: "كانت تراني بثوبي المزيّف، كاد يذهلها حين خلعته مرة واحدة، ورميته فى وجهها بمنتهى الوقاحة والكذب".

مع ذلك عادت تُلاطفني لتنزع منّي أحلي ما عندها، بعد أن فقدت الأمل فى استرجاعى نظرت إليّ بحماقةٍ، وقالت: "كيف فعلت هذا؟" وسألتنى فى حسرة: "هل كنت تشتريني طوال الرحلة؟! يجب عليك أن تترك ثمن استمتاعك بى؟! هل نسيت وقوفى بجوارك كلّ هذه السّنين؟!"

أقف متزنًا، وأعلم أنّها ستفتعل مشاجرة لتقطع شرياني.

بخبرتى أعرف أنّها تعلم أنّي سأرحل إلى غير رجعة، فقالت كلمتها الأخيرة: "أنا شرموطة يا سيدى، أحتاج لعرقي مادمت ستتركني! كنتُ أعيش لك قبل ذلك بدون حساب وكنتُ عبدتك، لكنّك قلتها اليوم... سأنسحب".

سألتها مندهشًا: "أتحتاجين الحساب؟!" قالت: "نعم"، قلت: "كيف يمكن الجمع بين الحبّ والحساب؟!" أردت أن أخرج منها وأعتقها بلا أحضان، وأُطلقها بحريةٍ لتطير.

أريد أن أركب بيوتًا أخرى لا ترغبني ولا أرغبها، كانت هى تتشمّم هذه السّفالة، فقرّرت الاعتراف فى وجهى، وقالت فى سخرية: "نعم أنا معك كلّ هذه المدة، لأتقاضى أجرى".

انسحبت كل جوارحي منّي حتّى لا أسمع ولا أرى، كأنّني طوال العمر شخص آخر يرغب فى الاستحمام من رائحتها.

"آاااه يابن الفقراء العرايا جئت هنا لتدافع عنهم، وتُحسِّن أوضاعهم، فتاهت منك العيون والأحاسيس، قلت لها: "أنا لا أعرف الحبّ، أنا جئت هنا صدفة، وعملت صدفة، ووقعتِ تحت قدميَّ صدفة، وأخذتِ ما فيه النصيب وحاولتِ... وفشلتِ، وفي اليوم الأخير... اعترفتِ، يا ميت خسارة أتريدين الحساب؟!"

أتحرْقُ القلبَ المتبقّي لك؟!

كانت تمشى ورائى، وتختفي خلف أساطيري، وتهدّد كلّ ما تبقّى فيَّ من رجولة.

تصرخ: "سوف أقتلك وأطعنك في شرفك وأغدر بك "، تحمَّلت النار، وهي تحترق أمامي.

كانت إجابتي التي لم أستطع أن أتلفّظ بها طوال حياتي لها بأنّني أتلذّذ من النار التي أشعلتها فى نفسها، ولم أرغب قط في إطفائها، إنّه الجبن والغدر الذي يُغذّي القلوب.

صرختْ وهى تُمسك برقبتى: "كيف تستطيع أن تُعاشر زوجتك في الفراش ، وتحنّ علي أولادك وتعطيهم الحبّ؟!"، تعلم أنّ حيرتي تلازمني أثناء ردّى على التليفون... أو فى استقبال الناس بالشارع والمكتب والمنزل، وأنا أعلم بشكلٍ يقينيّ أنّ شيئًا ما سينفجر قريبًا في وجهي، واستعددت لملاحقة الجرحى والقتلى؛ الشىء المثير أنّها تعلم كلّ ذلك، ومع ذلك تستمرُّ العلاقة.

تخرج قسوتي من بين أحشائي لأواجه هذا الجبروت، وأعلم أنّ شخصًا ما سيبقى هناك خلف جدرانى؛ كي أستعين به عند الأزمة.

كنتُ أعلم أنَّ هناك مئات العيون المندهشة تتمنَّى ألاّ تراني أو تسمع عنّي مرةً أخرى بعد أن جرحتهم، يدعونى خوفي على نفسي أن أبتعد، وأمشي في الطّرقات وشعلتي متّقدة بيدى ، لألقيها فجأة على ملابسهم المملوءة بالبنزين في وسط الحفرة... وأُخطّط في وجوههم بالعلامة السّوداء ... ليملأ الحقد قلوبهم، ويستطيعوا أن يستكملوا الحياة مع شخصٍ مثلى

أعطاهم كلّ شيءٍ حتّى أحلامهم ، ثمّ سرق منهم كلّ شيءٍ، بعد أن وشى بعجزهم علنًا.... يحترق قلبي حين ألقي بشعلة النار المتّقدة عليهم، لدرجة أنني أحسست أنّه لا يوجد بروحي غير السواد... يُعلن عقلي المتّقد أنّ النهاية القاسية لهم حتمية، حاولت كثيرًا أن أُغيّر فيها، لأخفّف وطأة النار لكنّني لم أستطع، اليوم ألعن الدنيا التي وضعتني بمكاني هنا، كي أحرق قلوب الناس، وأجبرهم علي تحمّل الكره والحقد من شخصٍ أذهلهم حبّه، وأعطاهم كلّ هذا الأمان على دفعات... وأخذه منهم مرة واحدة، دفعة واحدة... ودون مقدّمات.

يحترق قلبي، و يتّقد عقلي، تلتهم النار كلّ شيء، كنتُ الوحيد الذي أسعي بشعلتي المتّقدة أن أخرج سليمًا؛ لأعترف كذبًا بأنني لم أكن هنا، وبأنّني لم أعرف أحدًا منهم في حياتي، كنتُ الوحيد الذي خسر كلّ شيءٍ ... ونجا بنفسه.

مشهد وداع

كان يناديها أمام مركز المؤتمرات: "ما تقلقيش، خلّي بالك من نفسك"، كنت أسمع صوته الكاذب من عيونه الخبيثة ، احتضنتنى وقالت : "ماذا أفعل؟ لا يوجد غيره يتحمّل قرفي".

ركبنا التاكسي، وقال لها: "توصلي بالسّلامة" كانت شبه عارية وهى تنظر في عيونهم، وهم ينظرون الي بجاحتها فى رغبةٍ مُوحشة.

عدتُ بعد وداعها إلى قاعة المؤتمرات، والغداء المفتوح على الموائد، وحجرات النّوم المزركشة، فلمحته وهو يمشي مع أقرانه وكلماته تخرج مُنمّقة، كان يحفظ جيدًا مشاهد الوداع ، والابتسامات المزيّفة.

أتذكّر وأنا طفل صغير في الابتدائي صعوبة حفظ الدروس، لكنني أندهش الان لهذه الذاكرة التي تحفظ أماكن الحروف والفواصل، والسطور والكلمات بكلّ هذا الترتيب، أتذكّر كلّ ذلك حين أسمع مداخلاته المنمّقة والمرتّبة جدًا لدرجة القرف، وأتساءل باندهاش: "كيف تقمّص كلّ هذه الأدوار بكلّ هذا الصدق؟!!"

"لماذا جئت هنا؟... ومن أجبرنى على الحضور؟!" نظرت إلى نفسي، وإلى التاكسي الذى جرى بها بعيدًا... نظرت إلى عيونه... وجدتهم يبحثون معي عنها، لكنّهم لم يجدوها مثلي، فقرروا الجلوس والتركيز معى فى حركات صديقها، ومخارج ألفاظه.

قِصّة الحبّ الذى لا يموت

رمتني أمى بالحضَّانة، وقالت: "سوف تبيض بيضة لى، ولِأخواتك الجوعى؛ لنطعم بها كلّ أهل الكفر".. سيندهش العالم بابنى الذى أشبع الجميع.

كانت الحضَّانة دافئة أحيانًا، وباردة أحيانًا أخرى.... وبالرغم من أننّى "الوحش الذى لا يُقهر" –كما لقبّتنى أمّى – فإننّى كنت أضعُف أمامها؛ لأنَّ قلبها الأبيض الناصع كالحليب، وعينيها الحنونتين تدفعك للاستكانة والسلام!

كنت فى البداية لا أعلم لماذا رمتنى هناك؟

ومع دخول الهواء المتغيّر كلّ يومٍ وكلّ ثانية، عرفت لماذا اختارتنى لهذه المهمّة الصعبة.

قالت وهى تودّعنى باكية: "لا تخف ، فبعد أن تبيض سوف تعود إلينا قويًا جديرًا باحترام الآخرين، لأنك أنتجت طعامنا، أنت الذى مكثت وحدك تتحمّل كلّ هذه القسوة ، لتنتج الدواء والحب".

لكنّها رحلت، وقالوا عندما سألتهم: "أمك ماتت" أَصرخ وأنادى عليها لماذا حرمتِني دفء عيونك، وحنيّة أصابع يديك بين أصابع قدمى؟!

كانت حرارة الحضَّانة ترتفع، ويتساقط الثّلج فجأة من الحيطان، فَأُصاب بكلّ أنواع البرد والعطاس، والرشح والعجز.

حين جلست على المقهى وحيدًا آخر الليل تساءلت: "هل كان بى ميزة دفعتْها لإلقائى فى هذه البئر الكئيبة، وتوقّعها بقدرتى على رفع الأحمال؟!"

ظللت سنين عمرى أجرى وراءها وأبحث عنها، لم أجد سِوى التحدَّى لتحقبقق حُلم أمى الودودة، بأننّى يمكنني بيض بيضة تكفي كلّ أهل الكفر وإخواتى.

كانت تشفق علىَّ وتقول لنفسها: "كيف سيتحمّل هذه القسوة فى الحضَّانة؟!" هل كانت خائفة علىَّ؟ هل كانت تحبنّى بقدٍر أكبر من أخواتى، لترمينى داخل البئر، لكنها ماتت قبل أن أفقس البيضة العجيبة.

أفيق داخل الحضَّانة، أبحث عن شربة ماء... عن غطاءٍ يقينى شرّ بردها... فيقولون بسخرية: "ذهبتِ إلى غير رجعة.

أقول لها آخر كلّ ليلة، وأنا أنام بالبئر: "لماذا رحلتِ ؟! من سيدُلّك قدمى اليسرى حين تحتاجك دموعي؟ من يلفنّى بالحرَام الصوف بأدفأ حضن فى العالم، ويعطينى الأمان؟!"

ولأنّهم أعدائي، ويريدون إفقادى هُويتّى ودورى فى الفقس والبيض، والإنتاج، فإنّهم يَشْمتون فى رحيلك، لابدَّ أن تعودى؛ لتتذوّقى أجمل ثمارنا التى تنتجنى".

أتودّدها؛ وأعاتبها لأننّى أتحمّل كل هذه الوحشة؛ لأنتج أجمل وردة تُعطِّر جو الكفر عدة أيام، وتُدخل البهجة عليهم، وتعطى لعشقهم للحياة معنىً، فهل يمكن أن تخونينى وترحلى، دون أن تتذوّقى إنتاج أجمل حقلٍ لدينا؟!

ومع عودتى آخر الليل على المقهى وحيدًا أُناديها، أسألها: "لماذا تركتِنى أقاسى برد الشتاء، وقسوة الوحدة، وظلم الآخرين؟!" لكنّنى فجأة أستدعى كلّ قوتى، لأزيل حقد العالم، وأدفئ الحقول والثمار لتنتج الحليب؛ لأعطيه لأجمل بنتٍ فى القرية مرة واحدة، كى تطير إليها تُطمئنها على رجولة ابنها، فهل يمكن أن أصدق أنَّكِ لن ترفعى عنّى أكوام القش، لأعطى للفلاحين معنى الأمل ، ونكتشف معًا سر البيضة التى إذا شمَّها أحد عرف معنى الخلود؟! هل تتركيني وحدى، دون أن أشتمَّ رائحة عرقكِ وحبّكِ حتى لا أتحول إلى كلبٍ ؟!

****

أفزعنى القهوجى، وسألنى عن الطريق الذى ستستولى عليه الحكومة: "هل يأخذون المقهى؟" أسمع المذيع يردّد من داخل المقهى أغنية "مكتوب الهوى مكتوب"، يتركنى القهوجى تجاهله، لتأتى إلىَّ مرة أخرى منكوشة الشعر، تعاتبنى: "لماذا غامرت بحُلمك الرائع، ورميت بنفسك فى بحرٍ عميق، وقذفت بأجمل ما عندك لكلاب السّكك، ووقفت بعيدًا تحلُم مثلى بأجمل وردة نستنشقها، ونلمسها ، ونعشقها معًا؟!

لو كان لى قلبٌ كقلبك، لمِا جازفت بالحُلم... ومع ذلك فقد أحببت فيك جسارتك... ولولاها ما انجذبت إليك"، صرخت: "إنّه قلبك أنت الذى أحبّه... القبضة المضيئة فينا لنرمى فيها كلّ همومنا... ونعيش البهجة يومًا أو ساعةً أو لحظة".

أقوم من على المقهى بعد أن غرّدت الديوك، مستسلمًا أبحث عن مكانٍ دافئٍ يؤوينى.

وحين يواجهنى فى الصّباح سائق التوك توك بوجه المفترس أتذكّر عيونك العسلية، ونضارة خدودك، ودفء أصابع يديك، أمشى بعيدًا أبحث عن شيءٍ ضاع منِّى، فأجدك هناك تمدّين يديك لغريقٍ مثلى، تأخذنى أكفانى إليكِ ؛ لترفعى حمولى عن ظهرى، وترمى بها بعيدًا، أحكى لكِ كيف عبرت المحيط لأِراك، وأشتمَّ رائحة عرقك وأنت تتشوّقين لِسماعى، وتبحثين عنِّى فى الحكاية الجديدة التى تخلُقها ذاكرتى، ماذا قلت؟ ... كيف رددت عليهم؟ وتتلهّفين على قلبى الضعيف، ثم تلوذين بالصّمت، لينطق لسانى... إنِّى أحبكِ... لأنكِ ملاكى وسر حياتى، فتغفرين ذنوبى... لأنكِ أنتِ المرأة الوحيدة التى تعرف سِرِّى، الوحيدة التى تعلم أنه نزل حضَّانة الموت ونجا، ليرى عيونكِ، الوحيدة التى مالت إليه ومال عليها... يعود إليها بمجّرد إشارةٍ من أصابع يديها... بمجرد إيماءة من عينيها... يصرخ فيها: "هل تقبلينى ابنًا وأخًا، وخالاً وعمًا، وسيدًا وعبدًا؟ أبوس يديك أن تقبلينى؛ لأنِّى أحب ملمس يديكِ، براءة خدودك، لأنِّى أحبّ الضفيرة التى تملؤها النضارة".

حين آخذك بجوارى، وتركبين معى أمهر جواد، وتدلدلين قدميكِ فى دلالٍ، ترفعين حاجبيكِ فى نشوةٍ لتواجهيهم جميعًا؛ لأنكِ ترافقين أجمل بطلٍ شاهدته عين يعشق البنات والحب، ويعرف كيف يدخل عروقكِ؛ ليطهّر دمكِ من الخوف والقيود... أتوسل إليكِ، أن تقبلينى وحيدًا بقلبِك .

التفريط

كان يجرى على الطريق الموازى لحافّة الترعة، والثعابين تعوى من حوله، وتزوم كالجمال، وترفع رأسها بِشَرٍّ كالعيون المتوحّشة .

يسأله صديقه: "كيف تعيش وسط كلّ هذه الثعابين؟! ... هل يمكن أن تنام بجوار حيَّة صفراء جميلة، ورمادية اللون وخضراء كملابسها، وتأمن لدغاتها؟!"

يردّ عليه: "تاهت القضايا منِّى وتبخّرتْ، شعرت أنِّى وحيد، فكيف أخاف على قلبى منها؟! ... ولمن سأعيش؟ ... للذّباب المغطّى فوق الأنوف ... لقريباتى الحوامل ... للعصافير التى لم تغنّ ولو لمرةٍ واحدة بالرّغم من قرب موتها"، و سألته: "هل أتيت لتشرب السمّ منِّى؟"

احتضننى ، وقال : "أتغرَّد للفجر ، وتقف وحدك تنتظر الصباح كلّ يوم؟! أبلبلٌ أنت أم صقرٌ جريح؟!"

قلت : "سأنزل الصبح إلى الحانة ، أشرب حتى الثمالة ، وأغوص فى دمى ، فمن سيذهب بعيدًا عنِّى ، ويُغمَّس بكبدى ليحتضن شخصًا تُوفى؟!"

نظر فى عيونى بحسرةٍ ، وقال : "كيف هان عليك ضناك؟! كيف هان عليك ابنك المدلَّل لِتُلقى به من فوق أسوار الحدائق؟"

أتوه معه ليخرج الدّخان من عقلى فيسد شريانى ، يقذفنى بقلبٍ جبار فأسير إلى طفولتى ، ورموش عينى كادت تطير لأمحو أحزانى ، طلبت منه دمًا جديدًا ، يغترف منِّى المرض وينزل بالسّموم على الخفافيش الكبيرة ،

يبتلع كلّ الشرور والحدايات التى تولول ، يخرجها من دمى الملوث ، ويُلقيها فى مستنقع القرية ، أو بمقالب القمامة المنتشرة أمام كلّ البيوت.

أعطانى الشيشة ، وقال : "لا تفرَّط فى حفاوتى واحتوينى ، واخرج بشرَّك منَّى ؛ لأبقى وحيدًا أجترّ شوقى إليك " .

أُحِبُّك

في يومٍ دافئٍ حزين كانت تلعب التُّرنجيلة مع أمي، نظرت إليها بعيونى العسلية خلف المصابيح الذهبية، جريت وراءها، ورميتها بالحجر خلف بيتنا.

عشقت معها قلب الفارس، ولعبة العروسة والعريس، حاولت أن أدوس على قلبي طوال السنين العشر الفائتة لأِصل إليها، لكنَّ الطريق لم يطاوعنى، بعد تضحيتى بكلّ الحيارى الحالمين.

قالت: "لماذا حاولت أن تقتلني؟" نظرت حوالي، وتساءلت: "هل كانت هناك، وضحت بك؟!" فسألتها: "هل تعرفيني؟" قالت: "أنت الذي لم تعرفني"، قلت: "كان جدّي هناك، وحكايات ستي والشيخ شحاتة ، أنتِ التى لم تفهميني، وحاولتِ حين لم أُخلص لكِ أن تقتليني"، قالت: "لا تكذب على نفسك"، فقلت: "عرفتك أنتِ التى لم تخلصي لي قط؟" قالت: "أنت المخلص لأبنائك، لعملك الذي تَقْتاتُ منه، أنت الذي أعرفه لا تخف غيري؛ لأنَّى أحبك وأعشقك، حينما تعود مع الجنود ... ستكون لي وحدي لتغتال الوحدة، أنت الذي دائمًا تتركني، وتنظر إليّ من بعيد ؛ لأرتكب جرائمى العشوائية بين السطور ".

"عندما كنت آتي إليك فى غربتك كُنتَ تبتعد عني وتغتال خلاصي، وبالرغم من عشقى فإنك فى الغربة لم تعرف ولو لمرةٍ واحدة معني الودّ،

ومع ذلك حين تقرأ كتابًا جميلاً، أو تسمع أغنية لطيفة تتذكّرني أنا الفراشة التي تحلُم بها، وتطير إليها حين تصحو من النوم كُلّ صباح".

أنهت حديثها الساحر بكلماتها التى لن أنساها أبدًا: "أحلم بكل البراءة التي يغتالونها ، وضحِّ بى ، فأنت رغم كُلّ ذلك حبى الوحيد".

أَرجُوكَ ... سَامِحني

شخصٌ واحد يجب أن أعتذر له آلاف المرات، وهان عليَّ أن أتركه داخل الممرّ، شخصٌ واحد يمتلك البراءة والعيون العسلية، تركته هناك دون رعاية أو حماية، شخصٌ واحد يحتوينى يعبّر عمّا بداخلى من تناقض، يرفع غطائى، يرمينى بأقصى ما لديه من بياض ويندهش منى، ويسألنى: "لماذا أتيت إلى هنا؟ نحن ملوك العالم السّفلى، وأنت الطفل المدلّل، فلماذا تُجبر على رؤية سواد عيوننا؟!" اليوم أتحسّر لأننّى تركته وحيدًا عند المحطة، وحزن قلبه أمام الباص يرتعش؟ أسأل نفسى فى ندمٍ كيف واتتك الجرأة؛ لتترك منزلك المتَّسخ وتهرب خلف شباكٍ ملونٍ لتدخل هذا الممر؟!

كانت تنادينى، وتلفّ حول شريانى محطّاتٍ فاسدة لتغدر بأعز ما تملك، وأنت تنتظر فى بلاهة تعطيها الماء والهواء؛ لتثبت لها عن جدارة انك ملعون .

كيف واتتك الجرأة لتترك هذا البرىء خلف قضبان غبية؟! هل تركته لتقول لهم جميعًا : "أتستطيعون أن ترفعوا غطاءكم كما رفعت الغطاء ... أنتم ما بداخلى؟!" وتسألهم فى بكاء: "كيف هان عليكم ترك وليدى هناك، وبحثتم عن سلّم مغناطيسىّ يشدّه إلينا داخل أسفل الممر ليرى نذالتكم؟ كيف امتلكتم كلّ هذه القوى من الكفر؛ لتتركوه هناك وسط الكلاب الضالّة يبيع الورد والليمون والرمّان؟!"

فى المشهد الأخير هناك باغتونى .. قالوا كلامًا مُكررًا مملاً، عن شخصٍ باع الوطن، عن دمٍ تم إهداره، عن عيونٍ اغتالوها، عن سرقاتٍ مزيّفةٍ، وكذب ظاهر.

قالوا كلّ كلامهم، وتحدّوا صوتى أن يتحدّث وسط هذه الوَسَاخات التى خرجت علىّ مرةٍ واحدة.

فى المشهد الختامى وأنا أجرى أبحث عنه داخل الممر كانوا يلاحقوننى، ويبعثون السمّ فى العسل الميت، ينشرون الأسماء خلفى، وينزفون، وينبشون بأظافرهم عن شخصٍ اغتالوه منذ ساعات وأيام وسنين. يبحثون عنه وهو فى المشهد الختامىّ يجرى كى يتركهم هناك عند باب الممر.

اشتعلت النار بقلبى، أُطفئها وأجرى، وحين عدتُ عند باب الممر بعد سنين طويلة نظر إلىَّ وعاتبنى لتحمّله ظلمى ، نظرت إليه فلم أجده، كان قلبى يتّقد، أين أخذوه منّى؟! بحثت عنه عند الحوانيت، فى كلّ مرة حين ألقاه كان مبتهجًا ، لكنّ هذه المرة كان حزينًا ، اليوم ضاعت عيون الورد من أشجانى، بحثت عنه ووجدته.. عاتبنى، كان صغيرًا ضئيلاً.. لم أستطع أن أنظر إليه، كيف استطعتُ بدناءة أن أفقده، قال فى حسرة: "لماذا تركتنى أقف هناك وحيدًا خلف المحطّات، والعيون الحجر، والبيوت الهشّة؟ لماذا تركتهم ينهشون لحمى، وكنت سعيدًا بمواكب المنتصر؟!! أنت تعلم أنَّك أنت الذى لم أحافظ عليك؟ لماذا تريدنى اليوم أن أبحث عنك، وأنت مُلقى على شاطئ النهر غارقًا فى جاكتتك الكحلى ضعيفًا تبحث عن حياة، فقيرًا تبحث فى عيون الناس عن نفسك، تبحث فى مياه النهر عن ضعفك ، واحتياج القرش وصفاء القلب، تبحث عن ملاذٍ آخر تنجو به وبهم فى المشهد الختامى، لكنّهم لن يصدّقوك.. وخانوك؛ لأنك كنت أنت الذى تركته هناك وحيدًا خلف الباب أمام الممرّ".

فى المشهد الختامى.. تجده ينتظرك... يبحث عنك، هل تجد أمك خلف البيوت تقف هى الأخرى هناك وتنتظر؟ هل تريد أن تبحث عن

طفولتها ، والقلب الشجاع ، والدم المهدر فوق أسقف البيوت؟ هل يمكن لها أن تصدّق ما حدث؟ اروِ الحكاية آلاف المرات ولا تخف، احكِ لكلّ من تقابله وتراه، احكِ بقلبك.. بعيونك الرمادية العسلية السوداء البيضاء، احكِ ولا تخف.. احكِ بخسةٍ بأنك تركته وحيدًا.. سوف تجده هناك بعيدًا يحلُم كثيرًا، يبكى كثيرًا، يبصق عليك أحيانًا كثيرة، ولكنَّه مازال يقف هناك خلف المصانع يراك، اجرِ إليه وضع قلبك فى يديه، اسأله "صديقى... أأنت هنا؟" قبَّل يديه... جميل منك أنّك مازلت هنا... لطيف منكم جميعًا أنَّ حبيبى الوحيد هنا، المسْ دفء العيون الحزينة، ادخلْ فيه، يدخل فيك برفقٍ ودفء... حبيبى... بالله عليك... سامحنى، لأكتب إليك مرةً أخرى آلاف الرسائل، لتصفح عنَّى وتغفر ظلمى.

الاغتيال

لروح هشام مبارك

للولاد الشياطين ببيع اللبان، وأجيب النهود، أشيل الورود، وأفتح من ولاد "علام" على نادى الصيد أمانى متلخبطة، يا قلب ليه تشيل فوق طاقتك، وتخش مناطق معتمة وِأنتَ الغريق؟!

سمع صاحبنا المنادى قام طلع، وقال: "يا أم حسين ليه بترسمى موتى، أنا نفسى أخش فى حفنة الصيادين، وأصطاد من البحر جِنَّية تحمينى، وتِرمى حمول الزمان من قلبى على غيطانِك، أنا نفسى أشوف أنهارِك، ودنيا متعطّرة، وبنت ممقوط وسطها على بنطلون، وعينيها زى الأجانب فى نوادى الصّيد صابحة مِزهزهة".

قالت "أم حسين": "عسلية حلوة منورة قلبه الغريب، خش يا مبارك ودوق"، لكن بابها الموارب خدع قلبه الحزين، كانت بنت بيضة مِلعلعة تِعْوج لسانها، وتِتمايل بين الورود، قالت "أم حسين": "يا قلبه الحزين، نفسه فى البهجة والفرح، ومعاشرة ولاد الأبالسة، جِنَّية تانية وتالتة تِزغلل عينيه الحيرانين، والِهبل فاكرين الحزن ينزف من صناديقه على الغربال، لكنَّ قلبه يا عينى مليان بياض، اتلخبط حصان طروادة رغم العيال والحزن المعشش، كان فيه نفس.... كان فيه جسد بيقاوم، سنة وراها سنة يهدّ القلب ويشده، تدور عيناه الحيرانين فينا، وِتخسره بِيَان مِتفتّحة علشان مفهمش، وأنا المجروح وقلب الحقِ يِندهلى، حيران أنا فى موتك، كان نفسى أشوفك ولو مرة أخيرة، أغرس شراييني فى دمّى وأديك حياتى، كان

نفسى أشوفك ولو مرة تعاتبنى، وتفتح قلبك الحيران على حبى، كان نفسى أشوفك، حيران فى موتك.. بحسّ أنه موت فطيس، موت أعمى وجبان" .

الحزن مليان فى البلاد، وقلبك الحزين حيران من زمان، وأندم لأنَّى من زمان سايبك لوحدك، سايبك ونادم على موتك.

كان جسدك الضعفان يقاوم، سنة ورا سنة، وِأنت بتسألهم طب له نقاوم؟ وقلبك الميت بيزعّق لازم أفوت فى الحديد، فى انتظار الآلام دخلت عليه البيوت، ضللت شموع الناس من الأوّل.

وفى انتظار آلام وقف الجسد، ونادت "أمُّ حسين" من الأول على قلبه : " من مدة كان حزين، مسألش نفسه ساعتها، وفين دمَّ الصّحاب الطيبين" .

مقدرش قلبه العبيط يستغنى، والسَّت العجوزة نادت عليه: "طب ليه مستنى"... لكن قلبه نزف... كتب بحزنه وسواده: "أنا قلبى ميت من زمان، لكنى مستنى، يمكن نعدَّى سوا"، ونشيل سوادنا وخوفنا، يمكن نعدَّى سوا.. لكن قلبه الميت سكت وبص شمال ويمين، ونادى فى الزمان، مسمعش حد صوته، وِإحنا بنتساءل عن حزنه الدفين .

فى جسدك المرفوع، والمنقوش عليه حزن البلاد، كان نفسى أخرج من شريانى... وأحوش موتك، لكنَّى معرفتش "أرجوك سامحنى ... أرجوك".

لحظة توقُّف

في الليل لما تهلّ المواسم كانت بيوت الفقارى معايا، في البيت لما أروح ويّاهم أتوه فى الأمانى، وأدَّور معاهم على ذكريات هربت منها المشاعر، وطول النفس وهجرة العصافير والموالد.

أدوَّر على كل اللَّي تاه في الطريق والحواري والبيوت، أبحث معهم وبيهم عن النَّهار الطالع والفجر اللى سارح، أنظر إليهم وأحسدك، وأقول: "ليه أخذتى كل الشتا وياكى"، وأصرخ: "لابس هدومى وسارح علي البيَّاعين، والسّطح فاضي، سارح معاهم هناك، يامين يرجّعني أقعد معاهم أَلِم سريس وجُعْضِيض، وِفُلّ، وأطير ورا "أبو دقيقة" في مواسم البراسيم، يا مين يرجَّعني هناك تاني ".

البحث عن معنى

تنتظر قامتها الطّويلة قلبي الضّعيف، كنت وحدي أشتري خبزًا من الرمّان، هل تشتريني اليوم لأبيع الرّياحين؟! كانت تغنّي للبارات والعصافير، والبيوت الشامخة، وتسير خلف مركبتي.

تنتظرني رعشة الفجر وتعشّش في المدن، وتشاركني البِكارة، و عندما أنتظرها تهرب الأنهار، كانت تُناضل كأجيرٍ في حدائق القصب، وتعربد مثل شجرة بلوط وتعزف أغنية الصباح.

كم سنة كانت تسير، وعاشت أسيرة ؟

تسير في شُرفات المنازل الضّائعة، لكنَّ الحياة طارت وتاه الحُلم في بحر الرّماد.

يحاول عصفور في حقل السبانخ أن يحصل على لقمة العيش، ليخرج من قلبي حافي القدمين عاري الجسد.

يناضل فينا من أجل أن يحيا، من أجل أن يحصل على عناقيد العنب، لِيُخرج أخته العاهرة بريئة ككلّ البنات الساكنات في أعالي البيوت.

كنت وحدي أنتظر في الطّرقات أمه الساهرة وابنه الملاوع، وزوجته المفضوحة، وهو يحاول أن يبحث لاسمه عن معنى، كي يحافظ على الركام وشجر التوت، كي يتذكّر الأيام الخوالي وهو وحيدًا بين أزهار القرنفل، كان يُذكّرنا جميعًا بأمجادٍ لم نرها، لم نعشها... كان يعيش أحلامه وينسى أوهامه، ويصرف بأقصى يمينه كلّ ما يكسبه بشماله، وهي كانت ترقص وتغنّي نشيد الوطن الحزين، كان يحتاج لعشرات السنين كي يكتمل فينا، وهم جميعًا ظلوا حالمين محطّمين، وباحثين عن أهلٍ وعشيرة ، كانت هناك

تحلُم بالعيش الرّغيد، وكنت أسيراً خائفًا وأتذكّر... كانت تناديني بحيرة: "لماذا قذفت بي في آخر الطّرقات؟! هل كنت تبحث عنِّي، أم عن معنىً حياتك؟!"

المجهول فينا

حين أصحو من النوم تُفاجئنى زوجتى بنشرة الأخبار اليومية "أنا طهقت من الخدمة، لن أغسل مرةً أخرى، لن أنظّف البيت... لن أطبخ"، فى كل يوم ومع ظهور الصبح تُعلن زوجتى على القنوات الفضائية لجيراننا القائمة اليومية لفشل علاقتنا!

بعدها يخرج الأولاد من البيت الذى ترفض الأرض أن تزرعه بالرضا، وتُخرج العيون الجاحظة لى ساعة العصر الاندهاش والغضب.

أتذكّر يومها حين كنت نائمًا جاءتنى الكوابيس... اللّصوص يقفون أمام البيت، يُحاولون كسر الكالون، الزوجة والأولاد، وملفّات القضايا، والعاملون معى عرايا فى صالة الشقّة، وانا أُحاول تغطّية المؤخّرات، وأجرى لأفتح باب الشقة وأخرج للشارع لينظر الناس في وجهي المغلول، وعينيّ الجاحظة.

تسرق الشوارع منّي بسمة الأطفال.

تنتظرنى هناك عند البوّابات الحديدية تراقب الممر، وتقول: "لن يمرّوا من هنا"... وأنا أتجاهلها مُحاولاً لمّ شمل الأسرة المفكوك ، فيدهسنى الطمع الملطّخ بعنب الديب.

تحزن الأشجار منّى ، وتصرخ أمهات العجول فى وجهى سوف يذبحون وليدى، لكنَّ قلبي القاسي لا يلين، ويسرق الدمعة من عين حبيبتى، ويغرق فى النهر الملوّث بدم الرفاق، مع ذلك كانت تقف على الحافّة الأخرى تُناديني بحبيبي، وأنا مشغولٌ باللصوص الواقفين خلف مبنى القسم مُدجّجين بالسّلاح اللامع، أحاول أن أجد حلاً لِمأساتي.

وفي الصّباح حين يأتيني القهوجي ليحاسبني أتساءل: "هل شربت كلّ هذه المشاريب، ثلاثين قهوة ، أربعين شايًا، خمسين حجرًا؟!!"

أرمى الجنيهات الورقية المزيّفة فى جيبه، فيبتهج النادل، ويترك لي الأحزان والدّخان، وهموم النّاس في الطرقات.

أمشى بعيدًا فى الحقول، أرى الفلاحين يتهجون للمجهول، أرى تعاستهم خلف الوجوه فأرتد غاضبًا خلف السّواقي ، أجلس هناك أحاول سحب دموعي من عيوني القاسية، لكنَّ الكلمات تهرب منِّي، تُشفق عليّ زهور الكرنب وحِفنة الجرجير، أحاول أستحلاب القلب المعبَّأ بالغضب، فينفجر صوتى وسط الجمع: "اتركونى وحدى مادامت الأم ترفض أن تجلس بجواري حتي يعود البلبل الميت، والبيت المليء بالحشرات والأولاد التائهون.

اتركوني هنا أبكي، فلم يبقَ لنا غير غلّ الأهل، وحقد الأصدقاء، وموت الأحبّة ".

محاضر الغربة

كُنَّا هناك.... نقف عرايا خلف أسوار الحدائق ليقبضوا علينا، ويحرِّروا محاضر لغربتنا، كان اتهامنا على جرأتنا بتخطّى حدود الموت، انفجروا يخططون منذ اللحظة الأولى على طمس معالمنا ، سألونا كمتهمين: "كيف واتتكم الجرأة على تخطِّى أسوار الحدائق؟!" انبهرنا من جهلهم؛ لأننّا سمعنا خلف السور قصصًا للأنبياء.. وللعشّاق وهم يرفعون حدود الأدب والسّماحة والكلفة، ويغطّون سماء الكون بالعدل، كُنّا هناك خلف السور نشرب الشّاى فى إبريقٍ واحد، ونعتصر المشيئة، والموت المؤكّد لحقدنا... نحكى جميعًا بصوتٍ واحد... كيف سكنَّا هذه المدن الغريبة، وهربنا من بيوتٍ كانت تمتلكنا لنكسر القيود، ففقدنا الهوية، وافترقنا بعد أن اختلفنا على حدود الشوارع؟!

خمسون عامًا لم ترَ فيها المدافن أمَّى، ولم يعد فى حصرهم اسم لأختى، وأنا أناشدهم أن يعفوا عن الأبطال والجثث الميتة، وأتوقع أنّ خلف السور قلبى، فأتسلّقه لأطمئنَّ عليه، لكنَّنى فُوجئت برجاله الخونة يُحرِّرون ضدَّى محضرًا بالغربة، كنتُ أسألهم فى صمتٍ: "ألا يكفيكم ضياعى؟! أتعاقبوننى لأننى نسيت اسمى، واسم شارعنا المقدّس؟! أتعاقبوننى لأننَّى فقدت الذاكرة بعد ابتلاع المدافن كلّ ذكريات الصّبا والموت؟! أتعاقبوننى لأننَّى غافلت حارسكم الأعمى، ودخلت من سور الحديقة أتشمَّم الهواء وأتحسَّس قلبى المسروق؟! أتحرَّرون ضدَّى محضرًا بالغربة... وتسألون فيها عن نيتّى بالغدر؟! أتحاكمون قلبى؛ لأننَّى قطعت العلاقة والمسافة بين الموت وأسوار الحديقة فى لحظات نومكم أيُّها المجرمون؟!"

حين كنت أجلس بجوار عمّال اليومية بالمقاهى أسمع حكاياتهم العجيبة عبر رحلتهم الطويلة فى القرى والمدن عن الآلام والأفراح، والنّساء والجرائم الليلية بالحقول والمصانع، ومراكز الشرطة وخمارات الكفرة، أُنصت لهم ساعاتٍ، وفى غفلةٍ منهم، أجدكِ هناك عند شبّاك غرفتك مملوءة دلالاً، كانوا يقولون عنكِ وهم يتذّكرون لون قميصكِ الأحمر الذى يُخفِّف عنهم حرارة الشَّمس، وطول النهار: "كانت بحّة صوتها العذب تخفف حمولنا".

أتذكّره بالغربة وهو يتلصّص عليكِ من خلف شباك مطلّ على سريرِك.... ليعزف صوتكِ الرّنان نغمةً للحياة... وأنتِ تنامين وحدكِ، تحلمين به فى آخر العمر كمرٍ ليوم سعيد، كان يقول لنفسه وهو الغريب فى البلاد الغريبة: "سأتذكّرها كلّما واتتنى الفرصة للهروب منهم بقلبك الدافئ، سأعاود مرةً أخرى القفز فى أحضانها، والنَّوم بجوار شباك حجرتها المطلّ على قلبى، لأتشمّم منها رائحة الحياة، حتى لو حرّروا ضدّى كلّ دقيقةٍ مائة محضر!!"

الأوهام

حين قرّرت أن أواجههم اندهشت من مستوى انحطاطهم؛ لأنّى كنت أظنُّ أنّى أكثرهم انحطاطًا، قلت لنفسى: "عليهم أن يُخرجونى من جبروتى"، سألتهم فى غلٍّ: "من أجبر المظلوم على الظالم، وحول الحرباء إلى عروسة للمولد، ونادى على الخنّاس ليشرب وسط البشر أنقاضى؟ من ارتكب الخيانة تِلو الخيانة؟! من يُعطى ثمَّ يأخذ.. ويأخذ.. إلى آخر حروف الذالّ؟! وكأنَّ كلمة "يعطى" تعنى بحرف الياء النهاية.

من يشترى خبز الصّباح ويعطينى دموعى، يزهر الأشجار ويشرب السمّ، ويعطى للخبّاز مفتاح الحياة؟!"

بكوا، وقالوا بصوتٍ جماعىّ: "يا قلبك المملوء بياضًا، من ينشر نبضك؟"

قلت لهم: "أتخجلون وأنتم الماضى؟! أتُهيئون التاريخ لأمراضٍ تناست أنّها خرجت من الأحزان مأساة عميقة؟ أتناطحون المارد، وتثقبون قلب السفينة كى أغرق؟! أتغادرون بيوتكم فى الصّبح وتنتابكم ريح الفشل مثلى؟! أتغادرون بيوتكم ووجوهكم عبسَ تولّى؟!"

– قالوا فى صوتٍ جماعىّ: "أنت جلاّد".

– قلت: "أنا الإنسان".

– قالوا: "ضحية تختار، ونحن الظالمون!"

– قلت: "ضحية... أنا لا أكون".

– قالوا : "تكون جلادًا على الأسفلت" .

تركتهم وذهبت خلفك فى الظلام أنقاض حمائم.

كانت تعيش فى بيوت العرب، وتُناديني بعيونها، وتسألنى مَن أفلسَ المشاعر حتى غابت، وأشعل صناديق الصّبر، وضرب خلف البيت ابنى؟!

باغتونى، وقالوا مارس سقوطك فى الظلام ولا تخف... أنت وضعت وهمًا على الأوهام، أنت الذى باع عمره ليستأنس بامرأةٍ غبية، وباع أشجار الرمّان بكيزان الصّفيح، واشترى القمح الجميل بالوجه القبيح!

أَسْأَلهم مرةً أخرى فى مودة: "هل تغادرنى الفراشة وتطير نحو أنهارٍ تُغرّد؟!" فيردُّون فى كآبة: "هل خفت يومًا... فلماذا أنت خائفٌ اليوم؟" ينادى عليهم من بعيدٍ يُطمئنهم بجُبنى، بعد أن شرّد البيوت الحزينة، ليقول فى حسرةٍ لقد زادت الأحجار صنمًا للعبادة، ثم ينظر إلىَّ فى غلٍّ، ويقول: "انزل هناك ولا تخف، فلن تنزل الدنيا عليك بكلّ انحطاطك"، أسخر منه، وأقول: "أتبيع أغنية بحنظل؟! أتشترينا لأننا أنصفنا البلاد؟! قد جاء دورك فاستعدّ.. وابدأ عجوزًا كالبقر، وامشِ سريعًا، فلن ترى سِوى الظلام، هاأنت تمشى كالطحالب، رافعًا كلّ البيوت على مياه النهر !"

قبل أن يصمت ، سألنى : "هل كان عقلك حين متّ مفاوضًا؟"

أعود للمنزل ، أشاهدها فى موتها ، أتساءل هل يمكن أن تفقد زوجتى رجلاً أليفًا مثل فأر فى الدولاب؟! كنت أُناديها عند عودتى كُلّ ليلة: "أتنهريننى حين أحتاجك؟! وحين أشتاق إليكِ، وتلاطفين الجو لأملك عيونى، أيكون قلبى مثل حبّات الطماطم؟!"

فتقول: "اخرج ولِف على البيوت، إيّاك أن تُعبِّرنى، أنت الذى سوّلت للحراس أن يستبيحوا دمى، فداهمنا العدو".

أفيق على شخيرها، فتسألني: "هل كان أعمى لا يرى؟ هل زادت الأحزان قلبه؟ كانت عينه تشبه نِسْمة الأشجار ، تشبه بلبل الأزهار... ألم يرَ حب الخلائق؟"

أنام مرةً أخرى، يأتيني صوتى، صارخًا فيهم : "هاأنت يا هادى هناك، أشتمُّ رائحتك، أشتمُّ شكر القلب معك فى الفندق العالى، تخطّطون وتدبرون المكيدة لقلبي الوليد... ولأمّى الفقيرة، وتبايعون على قتل مولاى الأمير، وتتبادلون القسم... لتبيعوا قلبي بكوبين من الذّهب".

أردُّ عليه بهدوء: "تعال مَعى اليوم وحاكمنى، انزل معى درجات السلّم العتيقة لترى أية زرائب وخرابات خرجنا منها لنقوم بهذا الدور"، كانت منازلنا شقوقًا للفئران والثعابين، والأيتام والأرامل، أليس من حّقى أن آكل الجبن والزيتون والفينو المعبَّأ فى أكياس بالقرنبيط المخلّل فى صفائح الإسفنج؟!، أليس من حقّى أن أخرج إلى البلكون وأنادى على القمر؟!"

أنا الذى دُعيت للاجتماع... وفى الطريق خرجت الكلاب ونهش الذئب قلبي، ناديت فلم تستجيبوا، أنا الذى ضحكتم عليه، وقلتم "مجنون"... فضحّيت بنفسى... وكنت النتيجة المبهجة... المحزنة، هل تختلفون معى على أدوارنا؟ هل تختلفون معى على أنَّ الاحتياطى فى الملعب يتمنَّى فوز فريقه؛ لكنَّ الذى أحرز الهدف، وأنقذ وراوغ ، وكسر أنف لاعب الخصم، هو الذى لعب مهما فعل الاحتياطى وأقسم أنّه ضمن الفريق؛ لأنّه فى الحقيقة كان فى الملعب يُشجّع مثل جمهور عريض.

نظرت إلى كبيرهم، وقلت له: "لا أحد ينكر جهودك، لكنَّ الفرح والحزن ، والهزيمة والنصر للاعبٍ مختلف عن الجمهور ، وكما طالتنى

الهزيمة... طالتك... وطالت اللاعب المعتزل أو المطرود، باختصارٍ يا صديقى تعال معى لِتتعلّم كيف تحاكمنى؟!"

استكملت مذهولاً على الرغم من شخيرها العالى، وقلت بعد اختبائه بركن الغرفة: "لأنك تبنى وهمًا جديدًا على الأوهام، وسدًا جديدًا حول ذاتك المنيعة التى لابدُّ أن تُخرجها للنوّر لتمشى معنا وسط الحجرات فى البيت دون أن تهبش أحدًا، ودون أن تنتظر سقوط أحد؛ لِتشمت فيه وتُعلن اكتشاف المرض".

نحن نعرف أكثر منك أين المرضى وعدد الغرف؟.. وكيفية الشفاء دون أن نؤذى أحدًا، فلابد أن تخرج من حجرة الاحتياطى، وتدرَّب نفسك على حدود الملعب وقانون الكرة، إن كنت تبغى محاكمتى فلابد أن تنزل معى الميدان، وأنت مُشارك بدورٍ صغير، تتعلّم الدنيا ببطء، تنزل على الأسفلت صريعًا، تفرح وتحزن، تتحمّل كل انحطاط وسفالات العالم؛ لأنّك باختصار أكثر انحطاطًا منهم ، وإذا أردت أن تربأ بنفسك عن كلّ هذا، فعليك أن تلزم دارك، كما فعل الكفار حين لزموا دار أبى سفيان.

تعالَ معى يا صديقى، وانزل معى جدران المقابر لتكتشف من أكون؟- وليس كما قال بوقك- إننَّى زعبلاه، جلس طوال الليل ينكّت على دورى ، وخلقتم أوهامًا بجهلٍ تعوّدتم عليه.

صرخت فازعًا زوجتى بصوتى وأنا نائم: أنا لست ملاكًا، ولا شخصية عامة، ولا مُثقفًا أقول الكلام بحرف اللاء ملتاء، إننَّى أبحث عن نورٍ لم يأتِ، وشخصٍ لم أقابله، وحقيقة بعيدة لم أرها، سأظلّ أبحث عنها بكلّ ما أوتيت من قوةً، لن آكل أو أهمد إلاّ إذا وصلت إلى هذا المستحيل..

سوف أُراوغ الدنيا وألتفُّ حول الحيات .. وأثبت أمام الأسد.. وأعاقب القرود .. أسير نائمًا صاحيًا أبحث عن هذا المستحيل.. علَّه يأتينى.

أنتم لا تعرفوننى، فأنا لا تُشبعنى أية امرأة حتّى لو نامت معى كل نساء العالم، ولا تُشبعنى كنوز العالم الفضية والذهبية والخضراء، أنا أبحث عمَّا يشبعنى ولم أعثر عليه، هل تعرف معنى هذا؟ إننَّى أعتقد أنَّ عليك أن تتدَّرب كثيرًا لتتعلَّم كيف تسير معى فى الطريق، باختصارٍ إنَّك تدَّعى أنَّك تعلم كُلَّ الحكاية.. التى مازلت أنا أبحث عن أصلها وفصلها، وحقيقتها وكذبها، وصدق راويها، وأحاول أن أفهم وأنت وصلت إلى الفهْم المطلق ، فكيف نتقابل؟؟!

هل تعلم أننَّى أبحث طول الوقت عن طرقٍ للمقابلة؟ وأنت قررت الطلاق، أثناء بحثى عن الطرق سأكتشف الدروس، وأنت مازلت تقف على الكورنيش تنتظرنى بعد خروجى من كلّ الحوارى والطّرق؟!

هل تتذكّر محاجر الرّمال، وتجارة الانتخابات، ومشدّات النساء والمخدرات، والقضايا الوقيع ، وأزمة الحرب والثورة؟ كيف تُحمِّلنى مسئولية كُلّ ذلك؟! أنا طاقة البناء فى هذا الظلام الدّامس... هل تفهم أنّ من يقف على الكورنيش ينتظر "البنّا" بعد أن يبنى المدينة ويعود، عليه أن يتوقّع أنَّ كلّ تعب البنَّا لن يعود عليه، لكنَّ الحقيقة أنَّه هو الذى أخذ كلَّ شىء وأهم شىء... صعوده درجة فى درجات الفهم، والخبرات التى اكتسبها من صراعاته مع الهدّامين.

هل تعلم أنّ فى عيونى حقائق لملمتها من الحوارى، مهما فعلت فلن تفهمها كما عايشتها بنفسى؟ صرخت مرةً أخرى وأنا أبكى كما حكت

زوجتى لأمّى بعد انتهاء الليلة الأخيرة: "يا صديقى هل الرجل الذى يكدّ من أجل لقمة العيش مثل من يأكل من عرق والده أو أخيه أو صديقه؟! هل تعرف أنَّ الفرق بينى وبينك أننى لا أطمع فى لقمة غيرى، مهما أُتيحت لى الظروف، أو الفرص للانقضاض على الآخرين فلن أفعل؟!"

حين صحوت من النوم لم أُصدق زوجتى المتوهّمة التى كانت تحكى عن أحلامى، جلست وحيدًا على حافّة السرير وجاءنى فجأة حزينًا، وسألنى: "كيف هان عليك افتراس قلبى ؟" ثمَّ اختفى.

أُغنية الوداع

كم أحتاج من الوقت لأجلس معكم على مائدة المفاوضات؟ فاوضت كثيرًا كى لا أستمرَّ فى بيوتٍ عامرة بالجهل والخراب؟ كم تحتاجو من الوقت لتُشرِّفونى بالشرب معكم، وتخلقوا معى حوارًا حول إطار الحرب؟ حين جلستم على حجر الملكة لحستم الأطباق، وطالبتمونى ألاّ أبيع البنفسج فى طاجن الفلفل المطبوخ بالجُمل الحامضة، وسمِّ التخلّف والجهل المركب.

قلت لك: "أتشترينى لأبيع أنصاف الحضارة؟" اختلفنا حول النّور، تعجبّت منك وسألتك: "كيف تقاوم زهرة البرسيم صيفك القاتل وسمّك الفتّاك؟! كيف يستطيع الرّبيع أن يمرّ دون الدخول فى قلبك؟!"

عندما مررت على قوافلك البريئة.. ارتعدت، وقلتُ لماذا تشغلين النول بخيوط العنكبوت؟ ساقنى النادل لبيوت الداعرات؟ فقلت لنفسى: "ماذا يحدث لو تابت الغوانى عن اعتياد الرذيلة؟!" فجأتنى إجابتك السخيفة عن قرب موتى.

أهو ضعفٌ منّى حينما أدقُّ الباب كلَّ فترةٌ وأسألك: "ماذا يمكن أن يحدث لو تابت الغوانى؟!"

هل تتذّكر حينما جلسنا أول مرةٍ نتفاوض على قتل الأمير، هل أخذت رأى الكلاب؟! هل كان موتهم شُورى بيننا؟! حينما هبُّوا عليك مثل الثّعابين الغفيرة، انتفضت وقاومت العداوة، هل كنت أعمى لا ترى، أم أنّ زهرة البرسيم أسطورة تغنَّى للوحوش؟!

كانت بيوتًا من الأشواك تملؤها حُجرات تعيسة مُوحشة، حينما جاء دوره ليقتل الكلاب، لكنّه اختفى منّي فجأة، وطاردنى وصرخ: "ماذا صنعت لِتسحق كلّ البيوت البريئة؟! أتخاف منهم ، وهم يحتاجون للنّور لِتثمر بذورهم؟! ماذا صنعت لتبيع سيدًا فى مفرق طرق؟! ماذا صنعت؟ هل كانت نجوم الضّابط طه على صدره وهمًا حين جاء وحوله رجال البوليس ليحتلّوا أرضنا؟! لماذا كان يرتعش عمّى ولوادر المرجان تفتح فمها كوحشٍ من حديد؟! لماذا هربت الثعابين وتاهت وقتها الصّقور وطارت الغربان خائفة؟!"

يومها كنت أرتعش لأستحضر صرخة جديدة قوية، وأنا أسير ضياعك.

نظر إليها، وقال: "أتذكرين البطّ والفلفل، وأشجار النخيل العتيقة، وترعة نوالى حين ضمّتنا مياهها، ونحن نزحف على خوخ الشيخ أبو سريع العجوز لنعلن ضياعى، حين انتفضنا على صوت أبو سريع العجوز هربنا، وضاع الخوخ والمانجو فى المياه، لم يتبقَّ إلا عجُّور غريب جاء معنا ليتابع سرقاتنا الجديدة!"

قالت امرأة غجرية ذات يومٍ حين شاهدتنى أتغنّى بالحزن؟ أنت كشجر الموز ضعيف، ووصفتنى بالبيوت النيِّئة، كان قلبى وقتها يتّقد منك، كيف أغير عليكِ وأحتاج إليكَ؟! قال عمَّى فى هذا اليوم: "هيا لنخرج من هذا الظلام"، كانت الرّغبة وحدها لا تكفى... كنتُ أحتاج إلى الروح... فمَن أعطاني هذه القوة والجبروت، والقلب الميت الجشع، وكل هذا الانحطاط ليسكن داخل جسمى، ويحرّك كلّ عواطفى؟!.

كانت امرأةً مغلوبة على أمرها التى قابلتنى وصفعت وجهى، وقالت: "لِيكن الأمر والنهّى وتكون النهاية، ولماذا أنت كفيل بالدخول كل مرة لمفترق الهزيمة؟!"

قلت: "النهاية حزينة، وأنا منذ سرقة حقل أبو سريع أسرق لحوم الماعز، وأستطعم حلاوتها"، قالت: "بشرتك خفيفة وجلدك ثمين، حين أحتاج إليكِ يفوح العِطر من الشَّجر، القتل مثواك الأخير".

قلت: "الوقود والفحم فى قلبى يشتعل".

قالت: "ابتدع أساليب جديدة ، وانطلق".

قلت: "سوف يموت المغنَّى دون أن يشعر أنّه غنَّى أغنية الوداع.. وتعيش العروسة على ذِكرى يوم زفافها طول الحياة، سوف تطاردنى أحاسيسك حتّى النهاية".

ردت ساخرة ، وهى تودّعنى للمرة الأخيرة: "مازال المغنَّى يعزف أغنية العودة، أما أنا فلن أتذكّر إلا قبرك!"

مشهد حزين لأمّى فى صلاة الفجر

شرايين من الغضب تعتقلنى ، تنتزع من قلبى بقايا الدم وتنتشر فيكِ، تغوص الدنيا خلف مراكب الموتى وفى الطرقات.. تختصر كلّ الخيوط العقيمة؛ لتبيض آخر الليل على قلبى رغيفًا.

قلت له معاتبًا: "أتبيعنى بأسواق الموتى، وترغمنى على الكتمان، وأنت خلف معسكر الأعداء تنتظر انتحارى، وتشدُّ من أزرى لأمشى فى الخرائب وتستغيث، وقلبى المشكو إليك يرغب فى الحياة؟!"

هل مازلت تعاند الرّبيع، وتبتلع كلّ الزهور لتمشى وتندهش فى العراء؟!

هل وجدت الضحيّة أيُّها الجلاد؟ كيف هانت عليهم بُيوت الأهل، وقسوة الماضى؟! كيف هانت عليهم رضعة الثدّى ولفّة المولود؟! هل وُلدنا أصلاً مِن رحم سيّدة تُسمَّى أمَّى؟! هل كان أبى فوقها يهمس بشىءٍ سِوى الغلّ، عاشق أنت لحبِّ الحياة، أم تلعن البيوت الميتة وتخاف منَّى؟

حين جاءك العساكر، وأنت بوسط البيت تتعطّف عليهم أن يذكروا لك مكان ابنك ، وأمَّى حين نامت كانت دموعها أنهارًا على الأسفلت.

كيف قسوتُ عليكِ وأخرجتُكِ من شريانى، ومن سقوف البيت الواقعة، ومن نخيل الأرض؟! لكنَّى فى كلّ صباح وخلف حواصل القمح أبحث عن حنانك، وعن كوب اللبن وحضنك، فأجد البيوت بلا استقرارٍ، والأُسر بلا مأوى ولا ياسمين.

هل كان أبى حين يُناطحنى عاشقًا للعجز، وحين تهبُّ الرّياح، وتُوحل الدنيا يتحمّل جسده النّحيل كلّ قساوة الزمن الغادر ، والبيوت العطنة،

والعلاقات الفاشلة ، فيخرج للشّارع باحثًا عن لقمة العيش؟! كيف تحمَّل عِبء السنين الطويلة؟ كانت المشاهد تأتى وتذهب ، وأنا متوجّهةٌ كلّ يومٍ إلى هناك... إلى مكانٍ يُسمّونه عملى... كنت أتذكّر أمى وهى تبكى فى الصباح على الابن الغريب الذى ضاع فى يومٍ كالح، لماذا انفجر بعيدًا عن الأزهار وغاب مع الفجر، ولم يعد فى منتصف النهار؟! تسألنى عن أشياءٍ لا أعلمها لِتُفاجئنى خرافات غبية وانهيارات بعيدة وبطولة نادرة.. أتذكرينى يوم عرفتكِ، أم أنَّ الذكريات التائهة والمبعثرة لم تعد تكفى، كى يخرج النّور فوق البيت، وتغنَّى العصافير ليلطّخ أبى وجه الصباح النّدىّ بصوته القاسى؟!

أتذكرينى حين طارت حمامة بيضاء على صدرى، وقفزت فى الهواء، كنت أنتظر البنفسج فوق سطح البيت القديم، انهارت سقوف المنزل، وبيوت الطيور فوق زريبة البيت، ودفن ريش الدجاج الميت وأجنحة الحمام، وأرجل الوز المتطايرة على عنق أختى المقتولة التى كانت تُنازع؛ ليعطوا لها ريق الحياة... لكنّهم رفضوا جميعًا أن ينقذوها، بعد أن تذكّروا أنّها بنت، وليس لوجودها فائدة.

أنجبت أمّى عشرين بطنًا، لتعلن فى الضّواحى أنّها سيدة قوية، عشرين بطنًا أنجبت ظلمًا وحبًا، وكفرًا وكرهًا، وحقدًا.. عشرين بطنًا.. وأنا مازلت أمشى فى الفراغ أبحث فى المشهد الغامض عن معنى!

قلب الحصان كان يعشقنى، حِدوة الفرس اللَّعينة أمطرت وجهى برشّ الدم ، فانفرجت أسارير الغضب منِّى، حدوة الحصان أوجعتنى، وجعلت فى عينىَّ شررًا جاهزًا فى أىّ وقتٍ للدفاع عن الوجه الذى مزقته، كنت أنتظر النَّاس فى العربات عند الفجر، وجدَّى لم يكن قط قاسيًا ليكرهنى،

وأمّى لم تكن قط حقودة لتلعننى، وأبى كان بلسمًا رغم قسوته الغليظة، ويديه الثقيلة، ورغم ذلك كانوا يعرفون أننّى أقوم بتمزيق وجوه الناس وتفكيك ملابسهم الضيقة، لأحصل على رزقهم، ليتركونى؛ لأنّهم يعلمون خفّة حركتى حين تشتدّ المعركة.

أتتوسّلين اليوم لتطلبى من دمى المقدّس أن يلين؛ كى يُصبح رغيفًا وغموسًا لأطفالى؟!

تنظر إلىّ بغضبٍ، وتسألنى: "كيف هانت عليك لفّة المولود، ويده الناعمة، وفخذه اللين؛ لترفعه فى الهواء، وتُلقيه بكلّ قسوةٍ على الأرض وأنت تنشرنى؟! كيف هان عليك دم الأهل، لتلغى البيوت والمحلاّت والقهاوى والحقول؟! كيف هان عليك القلب الصّافى لتملأه سوادًا؟ هل تتذكّر أباك حين انتظرك ، وأنت تخطب فى الشارع"، وقال: "أهبل وحنيّة فارغة، ليس من صلبى، ما كان أبدًا من ضلوعى؟!"

وقتها وقفت فى وجهه وتحدّيت الموت، وقلت بصوتٍ أفزع الجميع: "لن أكون قلبك النابض بالحب، وعمرك الضّائع وسط القهاوى والشوارع، لن أكون صلبك الصامد فى وجه الحقول".

فى النهاية تدفعيننى نحو الجنون، والطرق المستحيلة لأظلَّ أمشى فى الظلام، نداءٌ أخير وأوّل، فهل تسمعيننى؟ نداء لكلَّ الحقول والبيوت التى أحرقوها قبل الصّباح؛ لتعودى سالمةً قبل انهيارى.

طواحين الهواء

كان يكتب قِصصًا للأطفال ، ويمشي في بلاد الله يخطف الأسماء منّي، ويأخذ حُصاني الصغير فوق مركب الأنهار ، ويطير .

كانت أمّي تقف كشجرة البرتقال تقطف الأسماء ، وتهاجر كلّ يومٍ للمدن البعيدة ، يا إلهي كيف لي أن أُصدّق أنّ كذبك كان عاريًا ، وأنَّ غضبك كان ابتسامة لتزفّ أضواء عيونى العسلية؟! يا إلهي كيف لي أن أطير فوق مراكبٍ أخذتني ، وحلت مشكلاتي على أفئدة العصافير الصغيرة؛ لأسير خلف طواحين الهواء ، أنتظر المفاجأة الطيّبة في العيون البريئة ، وأهرب من عيوني ، وأنتظرك عند شجرة البرتقال الحزينة؟!

تخرج الأنفاس منّي ، وتمشي فوق مراكب امرأةٍ غبية وأنت كطفلها المجنون ، لتعزف قصائد المدح أنهارًا على الأسفلت ، وغصن الأميرة المملوء بكارة ، ككلّ مرة تضيء الأفق لترضي وحدتك ، وتئنّ بعد أن قذفوك عاريًا بكلّ الأماني المفقودة والأحلام المستحيلة .

شيخوخة البراعم

كانت الأنهار تمشي في المدن وتعيش ، لتُغرق البيوت الطيبة التي ارتوت من بطن أعدائي ، تناوشني كقلب راضٍ عن كلّ ما فعل ، ويدٍ قادرة دائمًا على العطاء .

تلاغيني لأبتلع الطعم الذي رفضته منذ سنين ، وتبيع في جسدي باسم العلاقة ، تنتظر خلف قضبان السّكك الحديدية ، وترتعش وتمدح في عيني قصور الثقافة ، انتظرت كثيرًا لإطلاق كلّ هذه الروائح بعيدًا ، هل عاشوا هنا ، وغربوا الان عن وجهي ؟ هل مشوا معي كلّ الطرق ، وفي نهاية الممر تساقطوا؟ هل تركتهم اليوم بطريق قاسٍ ، ليخرج عليهم المارد ويفترسهم؟ هل درّبتهم يومًا على اقتسام الحليب في كوز العنب؟!!

هل آمنوا يومًا بشيءٍ كانتظار المراكب والغرقى؟ هل عاشوا خلف الطواحين عشرات السنين ، وغاصوا في حشائش الموت أيامًا ، وقرروا الفراق؟

"لا أعتقد أنهّم ضحوا بقلبي ، فهم كانوا ينتظرون خلف الباب حتى يأتى الربيع ، رميت نفسك في التهلكة ، ليعيشوا على جثتك الطافحة"
"لا كانوا ينتظرون أن يموت ليصلّوا فوق مشاعره الطيبة ويأكلوها كالذئاب"
كانت المفاجأة غير متوقّعة ، فالذئب الذي كان حملاً عاد مرةً أخرى ، وأصبح ذئبًا ، يطلب السماح منهم ؛ لأنّه تصوّر نفسه ذئبًا ، فعاد كما كان يحلُم ليرمي الدماء الفاسدة في صناديق الزبالة من أجل نضارة الأشياء ، من أجل أشياء لم يفهموها ولم يعرفوها .

مرة أخرى يتساءل : "هل خرجوا من هنا أم عادوا؟ ماذا كانت تُخبئ اللَّقاءات الأخيرة بيننا؟ هل كانت تدلّل على حقارتى؟ سأبذل كلّ ما في طاقتي لأختفي حتى لا أجرحهم .

البراءة عنوان الحياة ، يجب أن تحافظ عليها كأغلى ما تملك دون خوفٍ أو جبنٍ أو مواجهة" ، مرة أخيرة يتساءل : "هل ماتوا أم كانوا هناك فى غربتى يعاشرونى ، هل يعودو ام فقدتهم للابد؟!"

الــوهــم

كان سقف الجامع الخشبي يلمع، وبُيوتًا من القش تغتال شموعي، والانتصارات الضّائعة بين سقف الجامع، وعشش الطيور تدلّل على سقوطى، ونور الجامع يلمع في كلّ الأركان ليدفِّئ الثعابين والأشجار الوارفة خلف البيوت الواطئة.

"محمّد يونس" بعجلته المرفوعة على الأكتاف، ونخلته الطويلة يصطاد العصافير، وكبار السن جميعهم يلعبون الدومينو والسّيجة أمام الجامع، و"محمود" الفاكهاني حول البيت يغازل أمّي، وهي تنتظرني بود يملأ العيون، وأبي كان يعشق الرمّان والبسمة الطويلة، وأنا كنت خائفًا من النظر إليه رغم أنّي دخلت عليه ، وحَلقت في هوائه الرطب آلاف المرات؟ هل كان معي قلبي الصغير والبيوت الطيبة، وعيون الفجر حين كنت أطمع في لَمِّ الشمل البعيد لأغرسه بدمي؟

هل كنت تعشق العيون التي ترهّلت في هذا الممر الواسع المرعب؟!

كنت أعلم أنّ كلّ هذه الواشيات عنهم بداخلي كاذبة، فالزوجة المهملة والصديق الخائن ، والأم التعبانة والأخت المريضة، والأخ الميت وحبيبتى المنتظرة، كلّ هؤلاء كانوا أفضل منّي... على الأقل حاولوا تحدّي الموت، وضحّوا من أجل بطولاتٍ سمّوها الحياة، كي يصلبو على الجدار مُندهشين من مشاعِرك المحايدة وعيونِك الحائرة.

أصرخ وحيدًا على المقهى: "يا عُمري الضائع في سواد القلب، خذني بعيدًا لأبني كل البيوت الجديدة، خُذني لأطبع قُبلتي الأخيرة قبل أن ترحل، لأبني معهم حصونًا منيعة تعيدني سليمًا، يا عمري الضائع خذني إليها ولا تعدني ابدا هنا".

إيّاك تورينى هزيمتك

تلاتين سنة ماشى فى البلد بتغنى، فارس عبيط ومصدّقاك البِنيَّة، متهيألها أنك وازنت بين البطولة والفشل، بين التحدّى والانكسار، بينك وبين اللّى بنآمله، فارس عبيط شايل عناقيد العنب، وماشى، من غير دكك بنطلون الناس، يا هل ترى هتمرّ من جنبى؟... وتعدىّ على بحورى... وتغربلّلى الماضى على الأسفلت، ما أنتِ اللى جاية الزكايب متفرقة فى البيت، ما أنتِ الوحيدة اللّى شغلتى الغيط، والمارد المكنون غار على السّت العجوزة وطار، عامل كأنه مش عارف حقيقة الانكسار، عارف كأنّه مش عارف ثمن الخيانة، يا للّى خانتك الهزيمة إياك تفكّرنى، إياك تصوّرنى أبيع برتقال وأشترى رمّان، ما أنتِ اللى خوخك بار فى بازار العم... كان قلبى خالى يمكن يزول الهمّ، عاشق ومش قادر على تركك، ما أنتِ اللّى قاصدة فروسيتى، حتى لو طالتك الهزيمة ما ينكرش الفارس، مقتول ومسجون بيتعذّب وشارد، ومش عارف إمتى يتلقّى ضربة الانتحار، الشر باين فى بلاد الفقرا ... متخبى فى الأفران، قاعد بيغلى، مستنًّى عفش البيت، أو حطب الذّرة؛ علشان يشعل هزيمتى بكبرياء مُصطنع متعفّر بالانتظار، مستنّى أبادر بالنهاية علشان يكمّل حدوتة الماضى الكئيب.

إياك يا قلبى الضعيف تفتكر أنك هتنتصر علىَّ، شمس النهار الطويل وتراب السكك والبحر، وحقن المدارس قبل الفطار تنده علىَّ: "إيّاك يا قلبى.. غيران من بيوت العرب.. غيران من فتحى أبو دراع.. غيران من فقر أهلى وضعفهم، خيبتك اللّيلة قوية إزاى هتكسب يا قلبى العطوف كلَّ الهزائم والماضى الكئيب ؟!"

****

كان بيزرع كلّ غيطان الفلاّحين بطاطا ،عشان فى مواسم الحصاد يحصد ليمون، برغم ذلك لما تلف تروس السّواقى تطَلَّع عِرَسْ وأبراص وحيّات قبيحة ناتفة حواجبها ، وسمّها مش قادرة تِغطِّيه ، نازل يسيل من عينها على الأرض ووشووش الناس والخضار وزهرة البرسيم .

مش كنت عارف رسمها، وشكلها... مش كنت عارف أنَّ غليان الباجور اللّى جاى، شادد هنا حيله ، مش كنت عارف.

أتجاهله وأرد : "مش هعرفك .. كلّ الحماس بيقرَّفك.. مشغول بإيه، وليه تكون كل انشغالك بهموم الوطن ذكرى.. إنت اللّى قاعد على القهاوى تِعدّ فى النّسوان، وتفتكر مصرى قديم قبطى، وتفتكر بفضول صورة الماضى، وتقول لنفسك.. كانت جميلة لما كنت بحبها".

وكنت لابس قميص جربان، ومندّى جيبك زى بط ووز، وماشى تهز البنطلون فى اللّباس ، لما أنت كنت فى الماضى بطل وفارس ، ومسئول كبير، ليه تفكّرنى بتوب الهزيمة؟، مش يمكن أنت مجرم خطير مزقوق علىَّ من الجهاز اللّى افتكرتوا نسينى؟! مش يمكن أنت حرامى تقلت جيوبه.. ومش همَّك غير جيوب الناس؟! مش يمكن أنت فى الأصل تايه؟! مش يمكن أنت كل دول؟! إياك أشوفك ، إياك تورِّينى هزيمتى وانكسارى.

وبيوت كثيرة مِطلّعة مصارينها من البلكون، وبيوت كثيرة بداخلها ست مقهورة مضروبة وتايهة فى بحور متوسّخة وخربانة، وإنت اللّى مغلول.. ماسك شعرها المحلول.. وبيسيل دمك المتلوّث على ركبتها، والابن متكوم فى خوفه.. والعيون زى السّيوف جاهزة للتقطيع، لو شفتى زى دم الغريب،

وهو بيدافع عن عظامى.. تمسح عينه وتبكى عليه، لو شفت زى البوسطجى و"شيويخى" رافع سلاحه فى وشه، وأنت بتتلقّى عنه ضربة المفترى الظالم، لو شفت زى الدم نازل من فؤوس الفلاحين زى بحر، كنت عرفت إيه سرّ الهزيمة والنجاح، كنت عرفت الثبات والصبر، والفارس لما يموت وحده مش زعلان، حزين أنت على إيه، وقاعد تحافظ عليه، على ماضى كل اللّى فيه بيفكّرك برجولة وبطولة، هتفضل تحافظ عليه ويخنقك، بكره البيوت القبيحة تكشفك، إنت اللّى خاين بلادك وناسك وأهلك، علشان تفكّرهم بماضى كنت فيه مكسور، وتعاير الفقراء بفقرهم، والعالم بمسكتوا للقلم، أنت اللّى خليت السّواد يملأ الحوارى.

اخرج من دنيتى، وامشِى فى الطرق الطويلة، امشى هناك بانكسارك، واحدفه فى البحر، يِمكن هناك تتطهّر وقلبك الغادر يبيع الفل، يمكن تغفر لك العاهرة اللّى غدرت بيها، وطمّعتْ فيها الكل، امشِى هناك وإياك توريني هزيمتك .

الجاكت الكحلى

حينما ترك جاكته الكحلي فوق المخدّة في اليوم الفائت كان يعلم أنَّ صديقه مات ، حينما أشار إليهم بأنّه سوف يمرّ دون أن يترك بصمات قلبه على وجه أحد عرفوا أنَّه استيقظ .

نظر إليهم وارتاب في عيونهم السّوداء ، أخافته نظراتهم ، اليوم قد جاء الحساب ، سألوه فى غيظ : "أنت عشت كما يحلو لك" . حينما فاجأوه بأنَّهم يريدون عينه خرَّ ساكتًا على الأرض .

صرخ فجأة فى صمت : "هل كان حُصَاني الصغير يلعب بجوار الأُرجوحة ، لينطلق خلف الأرصفة؟ هل أنا الذى أدمنت شرب القهوة على غيار الريق؟"

انتظرتنى أمي ، ولما قابلتني نظرت حولها ، وقالت : "سوف أغتال العالم ، القتلة المجرمين ، أين ابني الطائر خلف الأشجار؟" وسألتنى فى اندهاش : "كيف ألهتك الحياة ، لتمرّ من الخندق القاتم ، وتعود إلينا بكلّ هذا السواد؟"

أمّي التي كانت تسكن جواري خلف المحطّات تناشدني أن أعود ، لكنَّ قلبي يراودني ويعبر بي من محطةٍ إلى محطة ، لتغتال عيناى البراءة ، قلبي الأبيض يحاول أن يستثني حبيبتى من انحناءاته الغبية ، لِيُسهم بالنهاية في صنع مأساتي .

أصحو من النّوم ، لأجد الجاكت الكحلي مُلقى على حافة النهار يرتعش ، أسأله : "من أتي بك إلي هنا؟ من أعطى لقلبك الطاهر كلّ هذه الجرأة ؛ كي تقتحم الممر الأسود القاتم؟!"

ظلت أمي بعيدة تخطف الأضواء منِّي وتنتظر ، وتعلن للعالم أنّها سوف تغتال البراءة إذا لم يعد الجاكت الكحلي إلى مخدته التي تركها منذ سنين ، كانت هناك تحاول أن تُعيدني .

لكنَّ الجاكت الكحلي الملقى على شاطئ النهر يرتجف خوفًا ، يناشد الجميع أن يساعدوه كي يعود ولو لمرةٍ أخيرة ليرى وجهها الضّاحك ، هل رآني "سعدواى" المنجّد ، والسمسار ، والسمكري ، و"فرج" القهوجي؟ هل سخروا منِّي حين رأوه مبتلاً فوق أكتافى؟ لماذا شدّوني من قلبي؟ هل كانوا يرغبون فى أن يُثبتوا لأنفسهم أنّهم متمسّكون وجبابرة وأقوياء؟ هل شاهد أحدكم الجاكت الكحلى مبتلاً؟ هل شاهدنى أحدكم بدونه؟ أرجوكم ابحثوا عنه وحين تلمحونه قولوا له إننّي أنتظره ، أرجوكم ضعوه مرةً أخرى على مخدّته ، أرجوكم نادوا معى عليه ؛ ليعود إلينا مُبتهجًا لابسًا جاكته الكحلي .

قلب الوطن دون حماية

كان "أحمد" يقف شاهرًا سيفه الخشبي ، وينادي على الجموع النائمة لترى فخذه اللّينة ، لكنّ العينين الحمراوين للمجرم ، ركّزت علي مؤخرته .

صرخ "أحمد" بسيفه الخشبي فى الجموع الغفيرة : "المشكلة ليست في فخذي اللّين صدّقونى حتّى لا تغتالونى خطأً ، المشكلة فى "قاسية" التى كانت تسير مندفعة ورائى ، فانظروا إليها مرة ثانية ، لتعرفوا أنني أرغب فيكم مقابل نهدي وفخذي كرمزٍ لاحتياجاتكم" .

لكنَّ المشكلة أنَّهم لم يفهموا ندائي الكاذب ، ولموا لمتهم الخائبة ورفعو عصيانهم الوهمية ، وسكاكينهم البلاستكية ، وقرّروا امتطائي ، وأخذ فخذي بالقوة .. كنت سعيدًا لابتلاعهم الطّعم .

حين تم اكتشاف النّار فى العربات فزعوا ، وقفت أنتظر نتائج معاركهم الهزيلة ، فى هذا الوقت كانت حبيبتى تناديني لأُواجههم ... وألعب معهم بسيوفهم البلاستيكية والخشبية ، والشىء المذهل الذى أتذكّره أنّهم اعتبروا عُلب المربى الفارغة قنابل.

حين التهمت النار الجميع ، وتركت سيفي الخشبي ، لأَهُشَّ به عليهم هرولو ؛ لكنّهم وقفوا في سابع دور ليتحدّوا الموت ، فأغلقت عليهم باب العربة والغرفة ،وصرخت : "من يستطيع أن يتحمّل النار مثلى ؟! كانت الخيارات صعبة امامهم فإما أن يبقوا أو يحترقوا ، صرخ أحدهم فى رعب "إطفاء الحرائق مسؤولية الدفاع المدني ... فمن يتّصل بهم ليحمينا من بطشه؟!" كان الخيار الثاني أصعب عليهم ... إذ كان عليهم أن يُلقوا

بأنفسهم من الدّور السابع لينجو ، اليوم أتذكّر بعد مرور أربع سنوات هل بقي أحدٌ منهم؟ هل كان أحدٌ منهم موجودًا؟

خانتني العربات ، وأطفأتُ النار وحدي ، وهرب الجميع ، وتركوا سيوفهم البلاستيكية تأكلها النار .

كنت وحدي بالحُجرات المغلقة بعد أن رحلو ، جلسوا يفترشون الطريق ينتظرون حبيبتى ليغتالوها ... فهل تمرّ؟ أنا أعلم أنّها لن تمرّ لأنّها مازالت موجودة معهم داخل عربة الترحيلات وقيود الأهل ، وتحكّمات الزوج وغليان الزوجة ، وكبت الأبرياء وخنق الطيور .

اليوم أتذكّر مُتسائلاً : "هل حُلّت المشكلة ، ونحن جميعًا مازلنا ننتظر النار لتحرق العربات والغرف والبيوت؟ لكنّ سيارات الإسعاف ستترك كرة النار تجري هنا وهناك ؛ لتشتعل حقول القمح ، وعشش الفلاّحين ليخرج الفجر ، ويرسم لوحة كبيرة لبيوتٍ بلا أسقف ، فتتحقّق النبوءة لقلوبهم المحروقة" .

اليوم أسألها فى حسرة : "لماذا كشفت بطنك للخلاء ، وتركتِ أفخاذك اللّينة ليجلسوا عليها وقتما يشاءون؟! لماذا كنتِ تحكي لهم كلّ يومٍ حكاية الملك المفدى ، والصّياد الصغير، والقلب المحترق ، وهم ينتظروننى لأزرع البذور الجديدة بعد تمهيد الأرض؟! هل كنت أستطيع أن أُوقف رمي البذر ، حتى لو أخذوا الأشرار ناتج زراعتى ، أو سرق اللصوص والقوادون عرقى؟!"

كنت أقول بحب : "اجلسي هنا قرب قلبي لتُشعلي فيه الأمل ، يا بهجة العمر وفرحة القلب ، مازال هناك في العمر بقية ، وقلب لم تلتهمه النار ، يا أميرة الكلّ ، هل تسمعين دقّات قلبي الذي ينتظركِ؟"

قلبي حمامتان ، وبالّونة فارغة

في يومٍ جاء إليَّ يرتعش يبحث عنّي في صندوق النفايات ، فضعفت أمامه ، لأبرهن له على قلبي الرقيق.

دخلت عليه وسلمته عيني ، وقلت : "السلام عليكم" ، فقال : "من أنت ... أتعرفني؟" قلت : "كنت هناك ... أنت رفيقى" ، قال : "أتعرفني؟" قلت : "سوف أُثبت لك في نزاهةٍ وطهارة أنني مجرمٌ حقيقي ، لم آخذ منك سِوي اسمك ، وشكلك وبنطلونك الجينز ، وكلسون أبي ، ولباس أمّي الطويل" .

نظر إليَّ من خلف شاشةٍ وضعها منذ فترة قصيرة على عينه، ليرى جيرانه بقلوبٍ خضراء وأنهار من الرمان ، وقال : "أتغضب منِّي حين أناديك بـ "أحمد"؟!" أتغضب منّي حين أنزل عندك لترفع أقفاص الحديد من حولي؟!" الشيء المؤسف أنّها كانت هناك تلبس عيوني، وتغضب من خجلي ، وتلعن اليوم الذي أوصلها إلى هذا الممرّ الذى أُقيم فيه دون مُبرّر ، كانت تتصوّر أنني لن أتركها! .

أنظر إليها بحبٍّ وتودّد وهى تقول : "أتعرفني؟" فأرد مندهشًا: "كنتِ هناك وأنا رفيقك" ، فتقول : "أتعرفني؟!" فأرد حائرًا : "أنت العيون العسلية ، والجاكت الكحلي" ، فتقول: "من أنت؟" فأردد مذهولاً : "قلبي حمامة وقلبك يمامة ، فلماذا لا نطير؟!" فتقول بأسى: "ستقع!!"

الحبُّ والأذى

لفَّ الصّمت علينا ، كأنّ صاعقةً من السّماء أخرستنا جميعًا، كُنّا نحلُم معًا ببيوتٍ واسعة مفتوحة على السماء ، سنبنيها معًا ... كنت أجتهد لأُسهم في هذا البناء حين أراه يتحقّق في بهجة الأطفال الذين نُعلِّمهم دورهم في مشاركتنا صنع الأمانى ، فيضحكون ببراءةٍ وهم يتناولون أطباق الكشرى على عربة "صابرين" .

كان الشيوخ والرجال على المقاهي يبتهجون بصحبتنا ، ويتساءلون بفرحة هل يمكن أن يكون الحب جامعًا للبشر؟ ويعاودون اللعب ، بعد أن يقول كبيرهم "لما نشوف" .

خمس سنواتٍ قضيناها معًا لنُبهج العمال في مصانع "أوليمبك" و"مصطفى على" والمسبوكات ، ونتعلّم من الفلاّحين أهمية الحبَّ ، كنا نُشفى الحزانى بأحلامنا التي تقهر الخوف ونعشِّمهم ببناء بيوتٍ نظيفةٍ ، كانت عندنا إجابات لأية تساؤلات لأنَّ حُلمنا مُتماسكًا إلى أقصى درجة ، وهل يقف أمام قطار الحبَّ أيُّ أذى؟!

جاءت اللّيلة الفاصلة ، ونحن نجتمع في حجرة أبينا الرّوحى الذي كنّا نفخر بصدقه وهو يصرخ ، وينادي على الجموع الغفيرة فى الحارة أو المصنع ، فيجذبهم ويدخلون معه وبه الجنة الواسعة للحبّ ، كانت النساء والبنات يعشقن رؤيتنا وسماع صوتنا .

الليلة جلسنا صامتين لا نجد كلامًا يجرح اندهاشنا ، قال أكذبنا : "ما الذي حدث؟" ضحك عن آخره وكأنَّ السكاكين التى طعنتنى كانت وهمية ، كنت أسأل نفسى فى مرارة : "كيف يمتلك صديقى الكذاب كلّ هذا

الفراغ؟!" كان الرفيقان الآخران صامتين مثلي ويعلمان أنّ هناك وقائع وأحداثًا جرحتنى ويُخفونها عنّي ، اشتركوا الثلاثة فى ارتكابها ، وشاركهم الأب الروحى ، أنا الوحيد الذي لم يكن يعرف سرّهم ، لماذا إذن خدعونى بمشاركتهم؟ كيف سأسير معهم مرةً أخرى فخورًا بهم وسط التجمّعات التى نرويها بجنة الحب؟!

قال صديقاى الصامتان دون أن يتكلّما : "أَنت لست حزينًا منّا ، لم يكن بأيدينا شيء" ، فيردّ صديقي الأجوف ضاحكًا : "ماذا حدث لكلّ هذا؟" كنت مغتاظًا من إحساسه الميت ، وأتساءل : "هل كان وقتها يسخر من نفسه ، أم كان يعلم أننّا نكذب على أنفسنا ".

أتذكّر اليوم أنه كان مسئولاً عن مالية الخلية ، الشيء المضحك أننى كنت أعمل باليومية مع العمَّال لأُعطيه نصف أجرى ؛ ليشتري كتبًا لنثقف أعضاء الجماعة ، بعدها علمت أنّه كان يأخذ الفلوس ؛ ليعاشر النّساء ويسرق الكتب التى نوزعها على الناس في تبريرٍ مشروع بالسرقة مادام هدفنا نبيلاً ، في هذا اليوم لم أكن أُعاتبه على هذا التفكير ، لكنّي كنت أتساءل : "أين ذهبت فلوسى التي عملت بها طوال السنوات الخمس من أجل إنشاء مركز تثقيف ؟!"

واسني أبونا الروحى في صمت ، وقدّم لي المحشي الذي أحبّه ، ورمي بالحشيش فى حِجْرى ، ونظر بعطفٍ إلىَّ ليُخفّف فجيعتى .

أسأله كيف تركتوني وحدي ، وحرمتوني نعمة المشاركة؟!

كان الصّمت الذى يلفّ الحجرةُ يُعلن عن شخصًا غير مرغوبٍ فيه بالاجتماع .

فى هذا الوقت صرخت "سلوى" المجنونة بالحارة ؛ لتُعلن بدء السنة الجديدة واحتفالها مع أبناء "كفر علام" الذى كنا نستأجر به مقرّنا ، نادت بأعلى صوتها على أبينا الرّوحى ؛ لتشدَّ على يديه ، وتتمنّى له النجاح وبناء مدينة الحبّ .

قال رفاقى فى صمت : "نخاف أن نتحدّث عن حُلمنا أمامك" ، قلت لهم : "أرغب فى الرّحيل وأتمنّى لكم النجاح ، سأتركّكم وأذهب لبلدي أحلم مع اهلها بحياةٍ أخري مملوءةً أماني جديدة ، سأتركّكم" .

اليوم أندهش لتحمّل عقلي كلَّ هذا الألم؟

ودَّعتهم وخرجت من المقرّ الضيّق ، وعند خروجي من الباب ارتطم رأسى بسقف الباب لأنّي لم أطأطئه فجُرح ، نزف الجرح دمًا كثيرًا، حاول الأبّ الروحى مداواتى ، ووضع المنديل على رأسي ، قال : "باتْ معنا النهارده ، الساعة بقت تلاتة هتروح فين دلوقت ، مفيش مواصلات" .

تركتهم وخرجت للهواء مجروحًا ، واسانى بعد جلوسنا عل مقهي في شارع "السودان" ببولاق ، وقال فى صمتٍ : "إنَّ حُلمنا مشترك ، لكنَّي أحاول أن أكون جسرًا بينهم وبينك ، نحن أخطأنا ، لكنَّي سأظلُّ معهم لأبلّغهم بحلمك ليؤمنوا به ، ويساعدونا على تحقيقه" ، كان عتابي الوحيد عليه ، والذي يعرفه أنه تكلم نيابة عنَّي ، وأخذ مكاني ليكشف عورتي ، ليعرف الآخرون عيوبي .

أنا الذي كنت أغذِّى حُلمهم بالأمل ، الذي أَعطى دون أن يأخذ ولم يطلب شيئًا سِوي المشاركة ليعطي بأمان ، يجلس الآن على مقهي الأبيض

وحيدًا رغم أنّ الأب الروّحى لم يفارقه إلاّ بعد قيامه من على المقهى وركوب الميكروباص إلى إمبابة ، لينزل عند "أبو مداح" ويسير لمنزله.

المسافة الطويلة كانت كفيلة بأن يستدعي كلّ الماضي الذي فقده وخرج منه مجروحًا ، وقرّر يومها أن يأخذ راحة من الحلم .

الآن يتذكّر مقابلتهم بعد رحيله ، وهو يعلّم الأطفال المعانى الجديدة ، كانوا يتفرّجون عليه وهو يحلُم مع الأولاد بحياةٍ ليس فيها غش أو خونة ، كتب فى يومياته على المقهى آخر الليل "كنت أُعلّم الأولاد ، وأسخر منهم لتعليقات البنات الساحرات علي اشكالهم الضالة ، كانوا يندهشون ويتساءلون : "كيف فعلها وخرج من جنتنا؟ هل وِحدته أجمل من حدائقنا ؟!"

اليوم يتذكّر كيف ضحّى بالأمان لينجح ، كان يعشق عملة والناس الذين وثقوا فيه ،وحكوا عن ظلمهم وقهرهم ، اعتبر أنّ حل مآسيهم واجب عليه .

احدي الايام جاءه الأب الروحى ، وطالبه للوقوف إلى جواره فى مِحنته بدكّانه الذى يبيع فيه الأحلام والأمل ، لم يفكّر ، وقال له : "لا تخف أنا معك" قال لأصدقائه المعترضين إنَّه سيذهب مرةً أخرى .

اندهشوا ، وسألوه : "هل تستطيع أن تساعدهم مرة أخرى بعد أن طعنوك؟!"

قابل صديقه الأجوف هناك وهو يضحك بفُجر ، وعرف أنه مازال مسئول المالية ، فعرف أنَّ جهده وعمله سوف يتمّ سرقته مرة ثانية ، لكنّه وعد الأب الروحى بدعمه لتجاوز أزمته .

حين تمَّ تنصيب الأب الروّحى زعيمًا فى مجتمعه الإنسانى الجديد طلب منه الرحيل فى حياء ، للمرة الثانية يخسر الأب الروّحى الرهان ، ويخرج الحلم وحيدًا .

قال لنفسه وهو يسير فوق كوبرى إمبابة بجوار العربجية واللبّانين آخر الليل : "كيف يمكن الاستمرار مع هؤلاء الأشخاص الذين يرفضون مشاركتي؟" لكنّه سأل نفسه أيضًا للمرّة الأولى فى حياته : "لماذا يرفض أصدقائى دائمًا مشاركتي رغم تردّدى كثيرًا في إيذائهم ، كانّ الحب داخله يُطمئنه ، ويقول : "هناك دائمًا فرق بينك وبينهم فكيف يمكن أن يجتمع الحبّ والأذى؟!"

فى هذا اليوم قرّر أن يفارقهم للمرة الأخيرة ، ويبحث وحده عن حلمه.

يتذكّر الآن وهو يجلس وحيدًا على المقهى آخر الليل تلك العصفورة الصغيرة التي شاهدته وحيدًا عصر هذا اليوم ، قالت له : "أنا وحيدة مثلك ، وأفهم ما تشعر به ، اجعلنى ونيستك"، كانت طاقته التي مدّته بكلّ هذا الحب طوال السنوات الفائتة .

حين بكى على صدر امرأةٍ كانت تعاشره كلّ أسبوع مقابل مائة جنيه تُطعم بها أبناءها وأمّها المريضة ، قال: "كنت أنتشى بهذه العصفورة ؛ لأنني أحسست أنّ هناك آخرين مثلي يحلُمون بالحب ولا يغشّون ، كانت مرايتي التي أُشاهد فيها كذبي وغشي ، فأُعيد من جديد ترتيب أوراقى ، وأحرق كلّ الزّيف فى حياتى ؛ لأبنى جنةً جديدة من الأحلام حتّى ولو كانت بخيالى" .

لكنّني استطعت بكلّ جبروتي أن أهزم الحبّ وأجرحها ، عندما قلت لها فى آخر مقابلةٍ بيننا : "أنتِ لستِ شريكتي" .

فى هذا اليوم سخرت منه المرأة التى يُعاشرها وهى تتلوّى تحته ، وقالت : "أنت فعلت ذلك معها ؛ لتفهم كيف خانك أصدقاؤك ، كُنتَ تنام معها ، وتعطيها الأمان وأنت تسرقه منها ؛ لتستكمل رحلتك وتخلق جنّتك وحيدًا" .

كنت متيقنًا أن أصدقاءك لم يؤذوك ، وأنت الذي جرحتهم جميعًا بقرارك بالرحيل بعد رفضك مشاركتهم حلمك ، كنتَ تلعب دور الجلاّد المتخفِّي في وجه الضحية حين تهرب بعيدًا، كنتَ تحاول أن تعرف السّبب الذي جعل الأب الروحى للمجموعة يخرج وراءك بعد أن جُرح رأسك وأنت خارج من باب المقر المدفون بحارة "كفر علاّم" ، رافضًا التنحّى بالرغم من أنّك مطرود ؛ لأنك أنت الذى آذيتهم بشجاعتك ، وأنت تُواجه مصيرك وحدك ، وخرجت تبحث عن نفسك ، وحُلمك فخذلتهم بكشف الحقيقة" .

كان نور الحجرة يزداد خفوتًا والمرأة التى ترغب فى المائة جنيه آخر الليلة تزداد لزوجةً من تحته ، صرخت من النشوة ، وقالت : "الآن يجب أن تعلم أنّ حُلمك القائم على إيذاء الآخرين ليس حُلمًا بالحبّ أو جنةً للياسمين ، فكيف يمكن أن يجتمع الحبُّ والأذى؟! أليست هذه كلماتك؟! حين خرجت من المقرّ بعد أن جرحوك آذيت بعد ذلك كلَّ من اقترب منك ، أو وثق بك لتُجبره على البعد عنك مجروحًا" .

اليوم وبالطريقة القديمة نفسها تُحاول أن تجد بالعمل السبيل الأخير لبناء جنة أحلامك الوهمية؟ لكن هل هذه الجنة الجديدة للأذى أم للحب؟!

ابتسمتْ ساخرة ونظرتْ بقرف ناحيته ، وقالت : "هل تتذكّر العصفورة التى كانت تعطيك ريق الحياة؟ استطعت بكلّ قسوتك أن تمرّ على جثتها ، لتنفرد وحدك بالحلم ، واستحوذت عليه بعد أن جرحتها بخنجرٍ مسمومٍ سوف يستمّر في دمائها ، لتغذى به إيذاءها للآخرين ، فهي كانت تُحبّك ، وبالرغم من ذلك قمت بطعنها ... هل تريد أن تعلم كيف تعيش دون أن تؤذي الآخرين؟ إنَّها علمت منذ طعنتك أنّ السبيل الوحيد للخروج سليمة دون جروح من كلّ العلاقات أن تحب ؛ لأنّها شاهدت حبيبها يقذف بخنجره المسموم في قلبها كي ينجو" .

قالت المرأة فى تحدٍّ ، وهى ترمقه : "حين عرفتك للمرة الأولى كنت تتشمّم الطرق والبيوت وتبحث عن الفريسة ، حين عثرت عليٍّ واتفقت معى على زيارتك كلَّ أسبوع لأُخفف عنّك وحدتك ، فهمتك ، فأنت لا يهمّك جنس الفريسة ؛ لأنّك تخدعها فى البداية ، وتعطيها الأمان والثقة لتحبك وتشاركك الحلم ، وتستمر فى خداعها لتدّعي تصديقك حتى تفهم أنّها شريكتك ، وفجأة تصرخ فيها ؛ لأنّها تجرّأت على مشاركتك الحلم".

دائمًا كنت تقول لضحاياك : "أنا صاحب الفكرة ، وأنتم مجرد أداة منفِّذة لأحلامي ، وتقذفهم بأوسخ ما فيك ليفقدوا التوازن ، ويقرّروا الرحيل ، فهم لا يستطيعون أن يُكذِّبوا أنفسهم بأنهم شاركوك ، كنت أشاهدك وأنت تائه في الطريق تبحث عن فريسةٍ جديدة لتفرغ فيها

سمومك ، وهكذا تتحوّل جنة الحب التى خلقتها فى خيالك إلى جنةٍ للبؤس ، وليس هناك مفرٌ أمام من يحبونك ، ولا يمكن لهم النجاة .... ومن ينتظر منهم أو يتردّد تقذفه بالخنجر المسموم فى قلبه ، فيتحوّل ضحيةً لخداعك ، ولن يجد أبًا روحيًا يواسيه كما وجدت" .

– قلت للمرأة : "اصمتى .. اصمتى" .

لكنّها استكملت : "عرفت الآن لماذا خرج الأب الروّحى من المقر المدفون ، وسار معك لمقهى الأبيض في شارع السودان يشاركك الرّحيل؟ فهو مثلك كان يحلُم ، واضطر أن يطعنك بالخِنجر المسموم ، بعدها قطع شرايين يديه بالخنجر نفسه ؛ لأنّه حاول الجمع بين الجلاّد والضحية ، فمات!"

لم يتحمّل جسده هذا الدور البشع "أُرضي كلّ الأطراف" ، "أكسب كلّ الأطراف" ، "حُبّ كلّ الأطراف" ، فمات لأنَّ مشاعره لم تكن قائمة على الحب ، بينما أصدقاؤه كانوا قد دخلوا جنَّته ليؤذوه ، واضطر أن يُدافع عن نفسه فآذاهم ، حاول أن يهرب الحالمون بالحب كما فعلت ، مجروحين ليبحثوا عن فريسةٍ بريئة ؛ ليقذفوها بأوسخ ما فيهم ؛ كي تتحوّل دون إرادتهم لمؤذية" .

يترك المراة بعد أن واجهته بكذبة دون أن يصدق أنَّ عاهرة مِثلها تمتلك كلّ هذه الخبرة ، ويجلس وحيدًا على المقهى يحاول أن يبني من جديد في خيالة عالم جديد للرفاق... فهل ينجح؟!

وهل تكون هذه هي المرّة الأخيرة التي يقبل فيها أن يشاركوه ويشاركهم ، وينزع الخوف من داخله ، ويثق بنفسه ، ويوقف تخيلاته بأنّهم سوف يقذفونه فجأة بخناجرهم المسمومة؟

حاسب القهوجى وقال لنفسه : "عِدني بأنّها المرة الأخيرة التي لن تخون فيها نفسك ، وتقبل النتيجة حتى لو كُنتَ أنت الضحية المتخفَّية في وجه الجلاد ، اقبل النتيجة حتّى ولو كنت أنت الجلاّد المتُخفِّي في وجه الضحية ... اهزم نفسك المملوءة بالشر والغشّ ، اقبل ولو لمرةٍ واحدة" .

تردّد فجأة وقال : "هل أستطيع بعد أن سِرت كل هذه المسافات الطويلة ، وامتلأت شراييني بالخناجر المسمومة ، وقذفت عشرات السّيوف لقلوب أَقْرَب الناس ليّ ؟" كرّر لنفسة كلمته الأخيرة قبل ان يرحل : "لن أؤذى أحدًا حتى لو استبعدوني من حياتهم ، لن أجرحهم باختياري وكامل ارادتي ، ساعطيهم كل ما املك ودون مقابل ،فهذا هو الحب الذي حرمت منه" .